

مصطفى محمود

نار تحت الزمان

الطبعة السادسة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

قنبلة وشبكة الانفجار ا

جماعة الأب جيم جونز هي طائفة بروتستنتية متطرفة تأسست في كاليفورنيا عام ١٩٦٣ ، وبلغ عدد أعضائها ثلاثين ألفاً . . وقد تلقى الأب جونز تركيات من عدد من رجال الكونجرس ومن عمدة سان فرانسيسكو ومن زوجة الرئيس كارتر ، وهي تركيات شجعت حاكم جويانا لعل أن يمنحه قطعة أرض من ٢٧ ألف فدان يقيم عليها مستعمراته ويحقق عليها حلمه المزعوم بمجتمع تسوده المحبة والتعاون والإخاء وتزول فيه الطبقات . . وهي المستعمرة التي انتهت بجاذث قتل وانتحار رهيب لأطفال وشباب ورجال ونساء جاوزوا التسعمائة عدداً ، وعلى رأسهم رئيس الطائفة الأب جونز نفسه ، الذي قاد عملية الانتحار الجماعي وكأنها صلاة أو طقس ديني ، والترقيات التي قدمها رجال الكونجرس وعمدة سان فرانسيسكو وزوجة الرئيس كارتر تدل على أننا أمام رجل لامع مؤثر بليغ

وداعية من أصحاب الشخصيات المغناطيسية . . وأبلغ في الدلالة على قدرة هذا الرجل ما فعله في آلاف الشباب ممن دفعهم أمامه هم وأسرههم وأطفالهم حتى الموت في طاعة عمياء ودكتاتورية بشعة. وكأنه الرب الواحد الذي لا يناقش .
وظاهرة التطرف الديني تكاد تكتسح العالم كله اليوم ، وقد شاهدنا منها جماعة التكفير والهجرة عندنا . . وشاهدنا ما فعله زعيمها بالملئات من أتباعه الذين كرسوا أنفسهم له حتى الموت وحتى الجريمة .

وإذا كانت هذه المؤشرات تدل على شيء فهي تدل على حالة تعطش ديني عند الشباب ، وحالة خواء وفراغ وضياح واستعداد للموت وراء أول صارخ في برية يدعوهم إلى الله .

وقد كنت في لندن من عشر سنوات ، وكانت جميع الشوارع تغطيها « أفيشات » كبيرة من محاضرات الزعم الروحي والصوفي الهندي « المهاريشي ماهيشي » وكان الشباب يجمعون إلى هذه المحاضرات زرافات بالتعطش الذي يسعون به إلى ملاعب الكرة ، وقد أطلوا ذقونهم وأظفارهم . وعلقوا المسابح في رقابهم وقد سمعنا عن النبي الجديد « مون » وما فعله في أوربا . وسمعنا عن النبي الآخر الزنجي « أليجا محمد » الذي جمع حوله طائفة من أقوى الطوائف الإسلامية في أمريكا .

وفي كل مرة نرى رجلاً يصرخ داعياً إلى الله فيجتمع حوله الألوف من الشباب يتابعونه في طاعة وبراءة الأطفال .

لقد فشلت التكنولوجيا وحدها في أن تكون هدفاً للحياة ، وفشلت الحضارة المادية في أن تقدم المحراب البديل عن المسجد والكنيسة ، وانهمزت

الماركسية في امتحان التطبيق وانكشفت عورتها وثغراتها ، وفقدت تلك اللعة التي كانت تجذب إليها الشباب ، كما عجز رجال الدين التقليديون من قساوسة ومشايخ عن مخاطبة الأجيال الجديدة فأصبح الباب مفتوحاً على مصراعيه لأي زعامة متطرفة يقودها أي شيطان ملثم يجيد حرفة الكلام ، ويتقن هذه اللغة السحرية التي يتكلم بها أهل الله ، وعادة ما يكون هذا الشيطان من أصحاب القوى المغناطيسية في التأثير .

وحينئذ فالويل لنا منه ومن كل من يمشی خلفه .

ولاشك أن هؤلاء هم طلائع المسيح الدجال في عصر عجيب جمع بين الانحلال والعهر المادي وبين الصحوة الروحية والشوق إلى الله ويكاد يجتمع هذان الوجهان الوجه المادي والوجه الروحي في كل شاب ويتصارعان أحياناً في وعيه وأحياناً في عقله الباطن ولا أنسى تلك المرة التي قابلت فيها امرأة تعيش حياتها في تبذل كامل وانحلال وكانت تبكي في طهارة كطفلة كلما ذكر أمامها الله أو استمعت إلى قرآن . وكانت تبكي وسط ضجيج الجاز وصخب السكارى في ناد ليلي وقد نسيت تماماً أنها في زحام وأنها وسط الناس . . وأى ناس ! وتلك هي الشخصية المزدوجة لهذا العصر المتفجر بالتناقضات .

ولقد رأينا صاحبنا الأب جيم جونز يدعو إلى الطهارة والتدين ، ويعيش في نفس الوقت حياة الجنس والمخدرات والشذوذ ، ورأيناه يمسك الإنجيل بيد ويقتل باليد الأخرى .

وإني لأشعر أحياناً أن تحت أقدامنا فتيل قنبلة دينية زمنية ، وأن النار تشرح في الفتيل ، وأن القنبلة وشيكة الانفجار . . وأنا في أشد الحاجة إلى طلائع

لترشيد هذا الحماس الديني وتنويره حتى يأتي التحول بإصلاح وليس بموجات جديدة من الجرائم . والحيط دائماً رفيع جداً بين أهل الله وأهل الشيطان ، خاصة إذا تلثم أهل الشيطان باللثام الديني واتخذوا المصاحف والأنجيل شعاراً ودعوا إلى الله وإلى الفضيلة والتقوى ، والفارق دائماً هو تلك النبرة الحادة وذلك الميل إلى التعصب .

والمتعصبون من جميع الأديان ليسوا في الواقع على دين سوى دين نفوسهم . . فهم عابدون لذواتهم ولتصوراتهم الشخصية وليس لله الواحد الداعي إلى التواضع .

والنبي عليه الصلاة والسلام وضع يده في يد اليهود في البداية وسالم أهل الشرك وعاهد الكفار ولم يرفع سلاحاً في وجه أحد إلا حينما قاتله الكل ، وحاربه الكل واضطهده الكل حينئذ أذن له أن يدافع عن نفسه . . والمسيح قال في أولى وصاياه أحبوا أعداءكم . . ونحن نقول (ادفع بالتي هي أحسن السيئة) ويوحنا كان على صلابته في الحق محباً للناس وعطوفاً على الحيوان ، وقد أحب كل شيء حتى الجبل والشجر ورمال البحر وثرى الأرض .
وتلك سمة رَجُل الدين الحقيقي . . حبه للعدو ونصحه للخصم قبل الصديق وكراهيته للبعف إلا في الضرورة القصوى .

والله يقول لمحمد عليه الصلاة : (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) ، (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) ، (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر) . (وما أنت عليهم بجبار) ، (فاصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً) .

(قل كلُّ يعمل على شاكِلِيته) ، (لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) ،
(لكم دينكم ولي دين) .

إن احترام حرية الرأي والسماحة مع وجهة النظر المخالفة وسعة الصدر مع الخصوم وحب الحياة والخير والدعوة إلى البناء وكراهة الهدم ، هي علامات أهل الله ، وهي التي تميزهم عن الشياطين الملتصين بها قالوا ومهما دعوا . فخذوا حذرکم من هذه الموجات التي تأتي تباعاً وأنصتوا إلى القلوب وليس إلى زخارف الأقوال ، فإن النار تسرح في الفتيل والعالم قد بلغ ذروة تناقضه . .

to: www.al-mostafa.com

أهل الله وأهل الشيطان !

تطالعنا الأخبار كل يوم عن حوادث الشغب والتظاهر هنا وهناك وما يلفت النظر أن الشعارات المرفوعة هي شعارات دينية . . وأن وراءها أموالاً سوفيتية أحياناً .
إنهم يحرقون المؤسسات ودور السينما ، ويقتلون الأطفال والشيوخ والنساء باسم الدين . . وهو أمر مريب . . فالسينما أداة علمية محايدة شأنها شأن البترول والبخار والذرة والكهرباء . وهي أدوات يمكن أن تستخدم في الخير ويمكن أن تستخدم في الشر ، والفيلم السينمائي يمكن أن يكون داعياً إلى الحق والخير والجمال كما يمكن أن يكون داعياً إلى الانحلال ، ولا ذنب لدور السينما ولا لرواد السينما ، وإنما الذنب ذنب العقول الماكرة والمذاهب التي تستخدم هذه الأدوات للتهديم ، والسوفييت هم أول من استخدم السينما لهدم الأفكار الدينية ونشر المادية في العالم كله .

ولا يمكن حتى للعقل الساذج البسيط أن يصدق هذه الغيرة الدينية من الرفاق السوفييت . . إنها مثل الغيرة على القضية الفلسطينية في الشعارات السوفيتية المعلنة في الوقت الذي تسبق روسيا كل الدول في الاعتراف بإسرائيل ثم تكون أول من يمسك بيد عبد الناصر عن المبادرة بالهجوم على إسرائيل في حرب ٦٧ . ثم تمنع عنا السلاح في حرب ٧٣ . ثم تحاول أن تجهض المعركة في أيامها الأولى . ثم هي الآن تمنع السلاح عن سوريا في حين تهتف البراقدا لفلسطين والفلسطينيين طوال الوقت في تبجح وتناقض عجيب .
إنها إذن جزء من ظاهرة الدجل والمتاجرة بالدين .

وهي لا تفرق كثيراً عن شعارات الأب جيم جونز الذي ساق أتباعه إلى مجزرة باسم الدين ، أو عن جماعة التكفير والهجرة التي ساقت أتباعها إلى الجريمة باسم الإسلام . . وكل زعيم يحاول أن يستدرج أتباعه إلى ولاء أعمى وتبعية مطلقة هو من نفس الفصيلة وإن تكلم بلغة أخرى . . وهتلر في كتابه كفاحي والنازية والفاشية والدبابات السوفيتية حيناً اقتحمت المجر والجيش الروسي حيناً اقتحم تشيكوسلوفاكيا والذرائع الثقافية للطغيان والدكتاتورية في كل مكان كانت كلها من نفس النوع ومن نفس الفصيلة . . كلها كانت محاولات لترويح مصاحف بديلة وإعلان آلهة بديلة وجر الأتباع إلى ولاء أعمى وإيمان أعمى ودعوة إلى حماس ديني تختلف فيه الرايات أحياناً وتتفق ، ولكنها كلها تسير في نفس الاتجاه وتأخذ الشباب من نفس نقطة الضعف . . نقطة الفراغ الديني والتعطش إلى الهدف والمثال والحق والخير .

إنها جميعاً تحاول أن تقدم له همزة الوصل .

وهى همزة الوصل بين شباب مثالي مندفع وبين أهداف يزوقها كل فريق على هواه ويدعى أنها الحق . .

ولكن الحق هو الله سبحانه وتعالى والله هو المنبع الوحيد للأخلاق والكمال كما قال برجسون وكما نقول نحن في القرآن وكما يقول كل دين . .
والخواء والفراغ والخراب النفسى الذى يعيش فيه شباب العالم الآن هو بسبب افتقاد همزة الوصل تلك .

إن همزة الوصل الناقصة هى التى أودت بالشباب إلى هذه الانفجارات الانتحارية .

وهى وراء كل تطرف إجرامى أو عدوانى وهى وراء إدمان المخدرات وحالة الهروب والاعتراب وجماعة الهيبيز .
إنه دائماً شباب يفتقد الهدف والغاية .

وقد نجح الزعماء العدوانيون العظام أمثال هتلر وستالين وماركس ومن قبلهم زعماء الفرق المتطرفة أمثال الخوارج والقرامطة وجماعة التكفير والهجرة وجماعة القس جونز . . كل هؤلاء نجحوا مع أتباعهم ، لأنهم قدموا لهم همزة وصل مزيفة ، وقدموا محراباً بديلاً عن المسجد والكنيسة ، وإيماناً مريضاً بديلاً عن الإيمان السلم ، وهدفاً يصلح لامتنصاص الطاقة الشبابية وشغل الوقت الضائع .
وفى مواجهة هذه الانفجارات التى تحدث فى كل مكان لم تعد تجدى العقاقير المسكنة والعلاجات الجزئية ولم تعد تنفع الجراحات الوقئية . . وإنما أصبح واجباً أن تواجه جميعها بمواجهة أسبابها وعلاجها كلها بإصلاح جذرى . . ولن يتحقق ذلك إلا بأن نقدم للشباب ما ينقصه بالفعل . همزة

الوصل الحقيقية التي تملأ خرابة النفس وتعمر خواء الشباب وتنور باطنه . .
وذلك بالدين الحقيقي والإيمان السويّ والصلة المثلى بينه وبين ربه .
بهذا وحده سوف تهدأ نفسه ويسكن وجدانه وتستعيد فطرته توازنها
ويتحول قلبه المريض المنعزل العدواني إلى قلب محب مشارك مسارع إلى الخير
والبذل والعطاء .

هناك ضرورة في العالم كله لإحياء ديني يرفع راية حق بين كل الرايات
المضللة الموجودة ، والاحتياج عالمي ، لأن النقص عالمي والمرضى عالمي
والأعراض المنذرة تشهد في كل مكان على صدق التشخيص ، ولبلوغ مثل هذا
الهدف لا بد من إعادة تقديم الدين في أصوله النقية وبلغته عالمية عصرية تخاطب
الكل في كل مكان وليس بلغة طائفية منغلقة متعصبة .

لا بد من تقديم الدين في روحه وجوهريته وليس في شكلياته . . الدين
كتوحيد وخلق ومسئولية وعمل بالدرجة الأولى ، الدين كحُب ووعي كوني وعلم
وتقديس للخير والجمال .

ولم يضر الإسلام شيء مثلما ضرته الانقسامات والاختلافات حول
الشكليات والمظاهر ، والاستغراق في هذه التفاصيل إلى درجة نسيان لب
الموضوع .

- * هل يجب أن تغطي الطرحة وجه المرأة أو شعرها فقط ؟ !
- * هل حلق اللحية وترك السواك كفر ؟ !
- * هل يكون غسل اليدين في الوضوء إلى المرافق أو شاملاً المرافق ؟ !
- * هل الاستنجاء بالحصى أفضل أو بالماء ؟ !

هل اقتناء الصور وتعليقها على الجدران حرام . . ؟

* هل لبس النايلون للرجال حكمه لبس الحرير حرام . . ؟
وعشرات وعشرات من القضايا الجزئية يكفر فيها الواحد الآخر ، وتضيع روح الإسلام ويضيع لبابه بسبب الغرق والتنازح حول هذه القشور والتفاصيل .
والمطلوب فهم جديد عصرى يطرح هذه الخلافات ويدع تلك القشور وينفذ إلى الروح ليستطيع مخاطبة العقل العصرى المصاب في صميمه .
ولو أننا سنفهم السنة النبوية على أنها لحية فإن راسبوتين أكبر فساق عصره وصاحب أكبر لحية سوف يكون أكثر اتباعاً للنبي من أبي بكر وعمر . .
وماركس بلحيته العظمى سوف يسبق الكل .

بل السنة في نظري هي اتباع الرسول فيما تميز به من خلق وإيمان وعقيدة وصفاء نفسى وليس فيما كان يتسوك به أو يكتحل أو يلبس أو يأكل .
ولقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يركب البغلة فلماذا لايتخذها أصحابنا سنة ويتركون ركوب الطائرات والقطر ويعودون إلى البغال . . لماذا يتهاونون في هذه الحكاية ويتعاركون حول الذقن واللحية ؟

وكان عليه الصلاة والسلام يأكل بأصابعه . . وكان يذهب إلى الخلاء لقضاء الحاجة . . فهل نتخذ هذه الأمور سنة كما يطالب بعض الغلاة ؟
بل هي مسائل شكلية كانت مرتبطة بالعصر فلما تغير العصر تغيرت هي أيضاً . . يستوى في ذلك ركوب البغلة أو استعمال السواك . . فالعصر في الحالتين قدم لنا بدائل أفضل فعندنا الطائرة والقطار وعندنا الفرشاة ومعجون الأسنان .
إنما الدين هو الأمور الثابتة وليس المتغيرات .

وإنما السنة هي اتباع الرسول فيما تميز به وتفوق على أقرانه .
السنة النبوية هي السلوك المرتبط بالرتبة النبوية وليس السلوك المرتبط بالصفة
البشرية العادية

وحيثما اختلف المشركون على حمل الحجر الأسود قبل البعثة وتشاجروا أيهم
يحملة ثم ظهر محمد على الطريق . . صاحوا جميعاً « هذا الأمين هذا محمد »
وأخذوا بنصيحته . . لم يقولوا . . هذا هو الرجل ذو اللحية . . ولم يقولوا . .
هذا هو صاحبنا الذى يستاك . . بل قالوا هذا الأمين هذا محمد . لأن السواك
واللحية كانتا أموراً عادية في ذلك الوقت ، وكان أبو جهل ملتجئاً ، وكان
أبو لهب يستاك بالسواك . . إنما تميز محمد على الكل بالأمانة . . وهنا جماع
الأمر . . وهنا روح المسألة . . وهنا الامتياز الذى علينا أن نحاول تقليد الرسول
فيه والسير على قدمه . . وهذا معنى السنة وروحها في نظرى . . أما الباقي فأمور
لا تقدم ولا تؤخر . وقد نصح النبي المسلمين ليتخذوا اللحية لكي يختلفوا عن
اليهود الذين كانوا يملقونها . . فإذا يكون الحال الآن واليهود قد عادوا إلى
اللحية (المهيبز والخنافس . . إلخ) إن حلقها يكون أقرب الآن لمقصود السنة
وذلك لكي نختلف عن اليهود وذلك روح الأمر .

وبهذا الأسلوب ندعو إلى الدين بأن نجلو روحه وجوهره ونقدمه رسالة
عالمية للعالم وليس بأن نختلف ونتعارك فرقاً وطوائف على شكلية وأمر
ثانوية ، فإن الله قد قال في كتابه : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون
ذلك لمن يشاء) ، وبهذا قطع ربنا بأن في الدين قضية جوهرية هي روح

الأمر وماهيته تلك هي التوحيد وما دون ذلك أمور ثانوية يمكن أن تكون محل مغفرة .

وفي عالم ارتد إلى جاهلية شرسة وعاد ملحدًا كافرًا مادنيًا علينا أن نبدأ معه من البداية من الأيجدية الدينية من القضية الجوهرية وليس من الشكليات والثانويات .

إن استحضار معنى الله الواحد في وجدان المواطن أصبح القضية الأولى العاجلة ، فالعالم انحدر إلى غفلة مادية وانشغال كامل والله أصبح غائبًا عن الوجدان الإنساني الغارق في التفاصيل الاستهلاكية واللذات السريعة . . والتلفزيون والسينما والمسرح والراديو والكتاب والمجلة أصبحت أدوات خطيرة تزيد من إغراقنا في الغفلة والغيوبة والإغماء الحسى بالأغاني الجنسية وأفلام الجريمة وإعلانات الإثارة ومباريات الدوري والمصارعة الحرة وروايات رعاة البقر . . والنتيجة أن انحدرت النوعية الإنسانية إلى نوعية حيوانية بقرية ، فأصبحنا نرى الناس يتناطحون أفراداً وجماعات كالجواميس والأبقار على اللقمة والدرهم وقيراط الأرض والمرأة وزجاجة النبيذ .

إن الدعوة المطلوبة إذن هي دعوة توقظ النفوس على جوهر القضية وروح الأمر . . دعوة تتكلم بلغة العصر وتخطب الكل دون تعصب ودون تطرف وتحاول أن تمس في قلب المواطن ذلك الفراغ والحواء والهمزة المفقودة بينه وبين أصله وتحاول أن تعيده في رفق إلى أيام وصله بأسلوب سوى لا عدوانية فيه ولا تشنج ولا احتفال فيه بالتفاصيل والأمور الثانوية . .

الدين كما هو وكما أنزله الله ، الدين الذى يجب العلم والفن ويدعو إلى التقدم

والتطور ويشجع التكنولوجيا والإبداع الحصب .

من هنا يمكن أن يبدأ الإصلاح الحقيقي لكل هذه الظواهر الانفجارية ، وإن لم يبدأ هذا الإصلاح من الآن فإن الوقت الضائع سوف يعجل بكوارث ومفاجآت غير محسوبة يمكن أن تفاجئنا هنا أو في أى مكان من العالم ، فالنار تسرح فى الفتيل كما قلت ، وهناك قبلة دينية وشيكة الانفجار ، وهم يحرقون دور السينما ويقتلون الأطفال والشيوخ باسم الدين وهناك أموال مشبوهة تنفق لإشعال هذه النار . . إن الكل يدعى أنه يقتل فى سبيل الله حتى الماركسى الذى لا يؤمن بالله قد رفع لافتة مزيفة وأطلق اللحية والبخور وأمسك بمسبحة . . وقريباً سوف يختلط الحابل بالنابل فى سوق الدجل ولن تستطيع العين أن تتبين أهل الله من أهل الشيطان .

لقد طلعت النذر فى الأفق .

وعلىنا بالمسارعة إلى العلاج قبل أن تسبقنا الحوادث .

الحكم الإسلامى . . . متى . . . وكيف ؟

كان يقول لى :

كلما سمعت القرآن يتلى أمامى أبكى .. أتذكر آثامى فأبكى ثم ما يكاد يمر وقت حتى أرى نفسى أضعف وأعاود الإثم من جديد .

وكانت تقول :

كثيراً ما كنت أصحو على أذان الفجر فزعة فأقفز من فراشى عارية وأنا أرتجف وأشعر بوخز الإبر ولسع العقارب فى كل مكان قبلنى فيه ذلك الرجل الذى كنت بين ذراعيه وأهرول إلى الحمام وأظل تحت الدش ساعات وأنا أحس بأن كل شىء فى ملوث .

وهو فنان اختاره الله إلى جواره من زمن وهى فنانة تعودت أن تعيش حياتها بالطول والعرض دون حساب لشىء .

الإحساس الدينى لا يبرح الإنسان حتى فى ذروة انحلاله .. وهذا هو الحال دائما فى هذه البلاد التى عرفت الله وبنيت له المعابد منذ سبعة آلاف سنة .
لا تجد فيها كافرا واحدا حقيقيا .. وإنما تجد فيها أهل غفلة وأهل هوى وأهل دنيا

وعصرنا الذى نعيشه اليوم عصر غفلة .
انشغالات وهموم ومصالح وأطماع وشهوات تأخذ الناس فى دواماتها ،
ولكن فى القلب وفى الصميم يظل هناك عطش ولوعة وحزن على شىء مفقود مضيع .

لوعة من ضيغ الذهب فى سبيل الورق وحزن من ضيغ حبه الأول الوحيد
وضيغ وطنه وضيع نسبه الشريف وضيع أصله وحقيقته .. حيث جاء من
أشرف نسب .. من الله سبحانه وتعالى .
الله وطنه وربّه وأصله

والله حبه الأول الحقيقى والوحيد الذى أضاعه فى الزحام حينما نزل إلى عالم
الشتات ومضى يتلفت تتخطفه أضواء الفترينات وتشده الفتن من ذراعيه وتهوى
به أطماعه إلى الحضيض وتكبه الشهوات على وجهه حيوانا يلهث .
وأقابل كل يوم من يسألنى :

أيحاسبنا الله نحن أبناء هذا العصر الملعون الملىء بالمغريات كما سوف يحاسب
أهل البداوة الأولى أيام قريش ، فى تلك الأزمنة التى لم تكن فيها سينا
ولا تلفزيون ولا راديو ولا مجلات بلاى بوى ولا كاسيت ولا عرايا على
البلاجات .. ترى ماذا كان يفعل المسلمون الأبرار الأوائل من أهل النقاء

والتقوى لو كانت مارلين مونرو ورقصات الستريبتيز وعرايا البلاجات وإعلانات
الروج والشامبو دخلت عليهم غرف نومهم وأطلت عليهم من الشاشة الصغيرة
كل يوم . . أكانوا يظنون على طهارتهم وعلى نقائهم الديني الذي قرأنا عنه ؟
ألا ترى أن الظروف تقتضي أحكاما مخففة .

أتظن أنه يمكن أن يقوم حكم إسلامي في هذه الظروف التي نعيش فيها ..
حكم مثل حكم عمر بن الخطاب أو عمر بن عبد العزيز ..
وهل يمكن قيام مثل هذا الحكم دون بتر كامل للعصر كله ودون إرهاب
حديدي يستخدم العنف ليستأصل عادات ترسخت في النفوس وأصبحت مثل
التنفس .

ولو جاء حاكم إسلامي عصري وحاول أخذ الأمور بالتدرج والموادة
والترفق . . هل يرضى عنه أهل الدعوة المتشددون . . ألا يتهمونه بالترخص
والابتداع . . ثم ألا ينشق الجميع فرقا تهم بعضها بعضا وتقتل بعضها بعضا . .
وإيران مثال حي على ذلك .

والتساؤلات كلها عميقة وفي محلها ولا أظن أن التدين يمكن أن يأخذ
الشكل القديم بتفاصيله في عصر تغير تماما .

ومن يريد أن يعيش كأبي بكر ليس أمامه سوى أن يغلق بابه عليه أو ينزوي
في مسجد ويقطع صلته بالدنيا حوله تماما . . وهو لن يخرج من خلوته إلا أن
يخرج في حرب يخوضها ثم يعود مهولا إلى خلوته من جديد .

إن الإسلام بهذه الصورة المثلى ممكن فقط لأفراد نذروا أنفسهم وهم
الصوفية الكمل في كل العصور ، أما المجتمع كله فلا يمكن إدخاله في هذا

القالب القديم إلا قهرا .

وهو قهر سوف تكون له سلبيات وردود فعل سيئة تضيق ميزاته وحسناته .
يمكن أن تحكم نفسك حكما إسلاميا بهذه الصورة الحرفية على سبيل النذر
والتطوع ولكن لا يمكنك أن تحكم المجتمع كله بهذا الأسلوب دون أن تستخدم
العنف الدموي القهري لتخرج الناس من عوائدهم .

والدين لا يمكن غرسه بالإكراه ، والفضائل لا تولد عنوة .

إن الصيحة التي يمكن أن يطلقها الدعاة اليوم هي :

أصلح نفسك .

ليصلح كل واحد من نفسه وليحاول أن يروض سلوكه ويحكم دولته
الداخلية ويخضع أهواءه وشهواته . . فإذا نجح فليحاول أن يصلح أهله وجيرته
فإذا نجح فليكن صوت حق وقدوة ومثالا للمجموع وتلك أوسع خطوة ممكنة
نحو حكم إسلامي .

أما محاولة الإصلاح بالثورة والانقلاب العنيف فهي أحلام تسلطية
وشهوات حكم وتحكم .

إن تجريد فرق مسلحة لتطهير قلوب الناس لن يثمر إلا الرفض والكراهية
لكل ما هو ديني وحينما صنع محمد عليه الصلاة والسلام وصحابته مجتمع المدينة
كان نبيا مؤيدا بالله وبالروح القدس ويجنود لا حصر لها من الملائكة ، وكانت
الحياة بدائية بسيطة وكان النبي الكريم رجلا لا ينطق عن الهوى وإنما يقول
ويفعل بوحى يوحى . . فأين منا من يستطيع أن يفعل هذا .

واسمعوا قول الجن في زمان الرسالة :

(وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا) (٨ - ٩ - الجن)
هؤلاء هم الجن يشهدون بأن الله قد ملأ السماء بالحرس الشديد والشهب وجعلها للشياطين رصداً يحول بينهم وبين التسمع وذلك ليحرس نبيه ورسالته .
فأين هذا الحال من حالنا اليوم وقد أطلق الله علينا الشياطين وأرسل الجن من عقابها وأخرج المردة من قافها تنوش القلوب والعقول .

إن الحكم الإسلامى لا يستطيع أن يأتى به إلا نبي مؤيد بالله والملائكة والمعجزات أو رجل طاهر على قدم النبوة يسير خلف النبي حذو النعل بالنعل .
إن تغيير القلوب عمل إلهى وليس عملا بشريا والله يقول لرسوله الكامل (لو أنفقت مافى الأرض جميعا ما ألقت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) .
إن الوحدة وتأليف القلوب عمل فريد لا يقدر عليه العسكر . . بل ولا النبي دون مشيئة وتيسير وتمكين إلهى ، ولا وصول للحكم الإسلامى إلا على مراحل . . مرحلة أولى من التوعية والدعوة ونشر القدوة ثم تظهر طلائع من أهل التقوى والورع ثم يظهر رجل طاهر على قدم النبوة . . يجمع الناس حوله بالحببة ثم بتيسير الله يتحرك المجتمع كله وراءه اختيارا ودون إكراه ودون قتل ودون قهر . .

حين ذاك . . وليس قبل . . يكون الحديث عن حكم إسلامى .
أما هذه الدعوات الفجة المصحوبة بالتشنجات الهاتفة بحكم إسلامى يأتى غدا أو بعد غد دون هذه التهيئة الإلهية . . فحكما حكم الانقلابات التى تأتى

فتغير الجالسين على الكراسي وتغير المنتفعين دون أن تغير قلبا واحدا أو تنور ضميرا واحدا .

وحسب العاقل الذي يريد إصلاحا أن يبدأ بإصلاح نفسه أولا . . ويشرع بتطهير دولته ويطبق القانون الإلهي في سلوكه . . فذلك هو أول الغيث ثم بعد تجمع القطرات يأتي المطر . .

أما أن نصطنع المطر بالشعارات والتهافتات دون أن تتكثف القطرات . . ونصطنع القطرات بالأقوال دون تهيئة سابقة لظروف الرطوبة والبرودة ثم أن نتصور أن قطرة يمكن أن تنمو دون نواة ودون بذرة فذلك مثل توقع الحمل دون لقاح أو تصور جنين يكتمل في يوم بمجرد الهتاف والحماس .

نحن نعيش في عصر مادي جاهلي مبتعد بمؤسساته وتنظيماته وعاداته عن الروحانيات والمنهج الروحي ، ولا يمكن أن ينقلب هذا العصر في أربع وعشرين ساعة إلى عصر إسلامي بمجرد إطلاق النداءات .

ولو أن كلا منا أنفق الوقت في إصلاح نفسه ومجاهدة عيوبه لكسبنا أعمارنا ولصنعنا شيئا أفضل من النداء على ثمرة قبل أوانها .

يقول الله لعيسى في حديث قدسي « يا عيسى عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الآخرين والا فاستح مني » .

اللهم إني أشعر بالحياء منك .

لا تشادوا الناس يا قوم ولا تشادوا أنفسكم فإن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق وتدرج وهوادة وخذوا بالممكن أولا قبل محاولة فرض الأمثل بالقوة فإن المتعنت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى .

إن الفقهاء الأفاضل الذين يفتون كل يوم بأن السينما حرام والموسيقى حرام والتلفزيون حرام والغناء حرام والبنوك حرام يجعلون حياتنا كلها كفرا صراحا فلا يبقى لنا إلا أن نهجر إلى قم الجبال إن كان عندنا إيمان . . . وذلك هو نفس مبدأ شباب التكفير والهجرة وهو نفس مبدأ القس المسيحي جيم جونز الذي هاجر مع أتباعه إلى أطراف الغابة وأقام مستعمرة ثم حكم في النهاية بالموت والقتل على نفسه وعلى أتباعه فتجرعوا جميعا السم أطفالا وشبابا وشيوخا وماتوا عملا بآية الإنجيل « من أهلك نفسه من أجلى وجدها » .

وذلك هو حب الله الذي انتهى إلى اليأس من رحمته وإلى الانتحار وهو أشنع الكفر .

وتلك آفة المغالاة والترمت والتعصب والتطرف الذي يقرب الشيء إلى ضده .

ولو نظر أهل الحل والعقد إلى روايتهم التي يقبضونها من الدولة لوجدوا أن أموالهم يدخل فيها الحرام من إيرادات السياحة وجمارك الخمر وصالات القمار بما في ذلك الشيوخ الأفاضل أنفسهم وعلماء الأزهر ووزير الأوقاف وأهل الفتاوى الذين يفتون بالحل والحرمة . . . فكيف تبرأ ذمتهم من نظام هم أعمدته وأركانه .

إن العصر قد ابتعد عن الدين بالكلية .

والعالم يعيش جاهلية علمية مادية رغم الشعارات والمصاحف والأنجيل المعلقة في الصدور . . . هناك فساد في العالم كله ولكن ليس معنى هذا أن يكون الإصلاح بالرفض الكامل والدم والإرهاب والقهر والجبر فذلك أسلوب يقرب النتائج التي عكسها .

وقديما نزلت أحكام تحريم الخمر في القرآن بالهواذة والتدرج ولم ينزل تحريمها بفتة .

والله يعلمنا بهذا الأسلوب التشريعي التدريجي أن إصلاح الفساد المتمكن المترسخ لا يمكن أن يتم إلا بالهواذة والتدرج . . ولا يمكن أن يأتي إلا على مراحل . مرحلة بعد مرحلة .

وأنا أرى أن المرحلة الممكنة الآن هي أصلح نفسك ثم أصلح أهلك ثم جيرتك ثم كن لسان دعوة وحق في مجتمعك .

فمن أتم هذه المراحل في هذا الزمان فهو نبي عصره وهو بذلك يضع الأساس المتين لمن يبعثهم الله فيما بعد أطهارا أبرارا مؤيدين بروحه وملائكته لإحياء الإسلام على مستوى الأمة والعالم . . وذلك إن شاء ومتى شاء . . ونسمع من البعض من يقول أن هذا اليوم قد اقترب وأن البعث الديني قادم وقد أظلنا زمانه .

من كان يصدق أن رجلا منفيا مطرودا أعزل في الثمانين من العمر مثل آية الله خميني ينتصر وحده على إمبراطور وجيش جرار كامل العدد والعدة . إن لم تكن تلك علامة على صدق الرجل فهي علامة على صدق الشوق في قلوب الملايين التي تتلهف على بعث ديني .

نعم نحن نقرب ولا شك من هذا الزمان ، إن الشوق إلى الطهر والنقاء في قلوب الناس حقيقة لا شك فيها .

ولكن مازال بين الشوق والهمة المطلوبة للتغيير مسافة كبيرة .

ولم يظهر بعد ذلك الرجل الكامل على قدم النبوة الذي يسير خلف النبي

حذو النعل بالنعل .

ذلك الرجل المؤيد من ربه الذى يسير خلفه الملايين حبا وطواعية واختيارا
وتسليا .

ولكننا نملك التمهيد وإصلاح الطريق أمام هذا القادم وذلك بزرع الشوق
فى النفوس وتنوير القلوب وثقيف العقول والدعوة إلى الله بنفس الأدوات التى
يريد المتطرفون تحريمها . . . بالسينا والمسرح والتليفزيون والأغنية والكتاب
والمجلة .

والفن بوق عظيم ينفخ فيه الهدامون والمفسدون ويدعون فيه إلى مبادئهم . .
فلما لا تأخذه منهم وندعو فيه إلى مبادئنا بدل محاولة تحطيمه وتحريمه .

- إن الدعوة إلى تحريم الفن هى دعوة إلى تحريم العصر كله وهذا مستحيل .

بالهودة يا إخوانى

بالهودة تصلون إلى مرادكم

وبالرفق وبالتدرج تحققون هدفكم .

إن البنوك الحالية نظامها ربوى ولكننا لا نستطيع إلغائها دفعة واحدة
ولا نستطيع أن نتخلص من نمط الاقتصاد الغربى بقرار فورى لأننا جزء من عالم
والعالم كله يتعامل بهذا النمط من الاقتصاد الربوى . . إنما يمكننا أن نضع بذرة
طيبة بإنشاء بنوك إسلامية والتمكين لاقتصاد جديد منافس . . ثم ينمو هذا
الاقتصاد المنافس شيئا فشيئا . . وذلك هو أسلوب الخطوة بخطوة .

ونفس الشيء فى التليفزيون لا يمكن أن يتحول دفعة واحدة إلى تلاوات
قرآنية وتواشيح وابتهالات ومواعظ منبرية وإنما الحل هو ظهور فنون إسلامية

بديلة وبرامج عصرية هادفة وهذا أمر لا يمكن أن يتم في أربع وعشرين ساعة وإنما هو أمر مرتبط بظهور طلائع جدد يكتبون ويدعون .

ثم كيف نقطع يد سارق في عشرة جنيات ونترك سارق عشرة الملايين التي أخذها رشوة أو عمولة أو اختلسها اختلاساً من مال عام بحجة أن شروط القطع لا تنطبق عليه . . ألا يجب أولاً أن نبدأ بتعديل القوانين وبنظرة فقهية جديدة إلى روح الشريعة نحاول أن نستنبط أحكام تعزيز جسد جديدة تلائم المتغيرات الجديدة .

إن المسألة تحتاج إلى اجتهاد وليس إلى هتاف . . رويدكم يا قوم .

الشيوعية العالمية . . إلى أين ؟

نزل الستار على الفصل الختامي من عام ١٩٧٨ بأحداث كالفوازير . .
فيتنام الشيوعية تحارب كمبوديا الشيوعية ، الصين الشيوعية وأمريكا تبادلان
السفارات والقبلات ، العداء بين روسيا والصين يسارع إلى الذروة والمعركة
بينهما تجرى في ساحة بطول وعرض خريطة العالم .

المنشورات والشعارات الجديدة في الصين تهتف . . العمل أفضل من
السفسطة الأيديولوجية . . والريح أفضل من الديون . .

الشيوعية السوفيتية خلعت جلدها وانسلخت من أحشائها وناقضت نفسها
في محاولات أخيرة مستميتة لتكسب أرضاً جديدة . . فهي تهتف في إيران . .
يحيا الإسلام . . وتهتف في أوروبا . . تسقط ديكتاتورية البروليتاريا . ! وتهتف

في سيبيريا . . مرحباً برأس المال الأمريكي والاستثمارات الأمريكية والخبرة الأمريكية .

الرفاق المحترفون يقولون : الصين خانت المبدأ . . والتاريخ يقول : وروسيا خانت المبدأ . . فن بقي يرافق مع المبدأ . .

الشيوعي العذني أو الشيوعي الكوبي . . وكلاهما يعيش عالة على المعونات السوفيتية ويعملان جنوداً مرتزقة في خدمة الاستعمار الجديد في أثيوبيا والصومال .

ثم ماذا بقي من المبدأ . .

وروسيا تأخذ الخامات من رومانيا بأسعار الكوميكون ، ثم تصنعها وتبيعها أسلحة وعتاداً حروبياً وتطلب فيه أعلى الأسعار الرأسمالية ، وتشترط الدفع الفوري بالعملة الصعبة أو التقسيط بفوائد ربوية عالية تستنزف الشعوب إلى آخر قطرة من دمها الاقتصادي . . وحكاية الدفع في مصر وحكاية الدفع في سوريا تلوكها الجرائد كل يوم .

هل انتهى الحياء من العالم . . ولم يبق من الماركسية إلا صداعها ؟؟
تلك والله تورته عيد الميلاد الدسمة التي يقدمها بابا نويل للعالم ، وذلك هو القربان الذي يقدمه إلى الله من دم الرفاق . . إنهم لم يتركوا للشيوعي الغلبان شيئاً يحارب من أجله ولم يدعوا له شرفاً ولا مثلاً أخلاقياً يتحمس له والحرب إن قامت غداً بين أمريكا وروسيا فلن تكون حرب مبادئ وإنما ستكون حرباً بين خرتيت وخرتيت . . مجرد صراع على القوة وحرب على السلطة لا فضيلة فيها لغالب على مغلوب .

معركة بين ديناصورات يأكل بعضها بعضاً فلا يبقى منها إلا الذبول .
لقد جاءت حركة التاريخ على عكس ما تصور كارل ماركس على طول
الخط لتثبت خطأ المنهج الذى استخدمه فى جميع تنبؤاته . . فحروب اليوم هى
بين الشيوعيين أنفسهم والصراعات والعداوات تمزقهم فرقاً وطوائف كل يسار
يظهر على يساره يسار يحاربه ، ولا نهاية للانقسامات التى أصبحت بعدد أهواء
الناس ومطامعهم . . والذى يبقى فى كرسية يبقى بالقمع والإرهاب وبسلطان
أجهزة الزبانية التى يسمونها اليوم أجهزة الإعلام الشمولى التى تقوم بغسل مخ
المواطن من كل شىء إلا ما يريده الحكام . . والحق ضائع فى ضوضاء
الإذاعات وجلبة الشعارات .

ثم فجأة تأتى هذه الأحداث كالقوازير لتفضح كل شىء وتهتك السر عن
كل شىء ، فإذا نحن أمام أشخاص لا مبادئ ، ودول كبير لا أيديولوجيات ،
وأطماع لا أفكار ، وأحقاد دفينه لا نظريات .

إن الماركسية لم تكن إلا مجموعة الذرائع التى تدرع بها الانقلابيون الجدد
بدعوى التغيير ليصلوا إلى السلطة . . ثم بعد السلطة لم يتغير شىء . . . خرجت
طبقة وجاءت طبقة وانتهى ظلم وبدأ ظلم أظلم . . . هذه المرة ظلم شمولى يحتم
على الملايين بليته اليهم ولا أحد فيه يستطيع أن يصرخ .

والحاكم فى هذا النظام ديناصور . . وإله لا يخطئ . . كلماته دين وسيرته
نموذج . . فإذا اجتمع الديناصورات على المائدة العالمية رأينا كل واحد ينحى
مبدأه جانباً ورأينا الخالب تظهر من تحت المانيكير المذهبي ، ورأينا الأيديولوجية
تتبخر فلا تبقى إلا لغة المصالح والمكاسب . . ومن تكون له السيادة . . ومن

تكون له القيادة . . . ومن يحكم . . . ومن يركب . . . ورأينا حركة التاريخ لا يدفعها صراع الطبقة والطبقة وإنما صراع الدولة والدولة وصراع القومية والقومية وأحياناً صراع الأبيض والأسود . وأحياناً صراع الشخص والشخص ، وأحياناً أحقاد دفيئة جاءت مع ميراث القرون . . . تلك هي غابة الواقع . . . لا تخضع لنظرية بل تكاد تكذب كل نظرية . . . والإنسان هو مختصر هذه الغابة وهو مثلها لغز لا يمكن تبسيطه في قانون أو معادلة .

ويكذب من يصور لنفسه أنه فهم النفس البشرية وأحاط بها ، بل يكاد الواحد منا لا يفهم نفسه وهو أقرب الناس إليها ، وأن نفسه لتراوغه وتدلس عليه وتمثل عليه وتتنكر أمامه وتغلف شهواتها بالدواعي والمبررات والذرائع والنظريات . . . فلا يعرف الواحد منا ماذا يريد وماذا يبطن ولا يعرف من يكون ولا من هو على وجه التحقيق ؟

وهو قد يعيش ويعمل ويكافح متصوراً أنه شهيد أو بطل ، ثم في لحظة زمان وفي ساعة امتحان ينكشف على حقيقته دجالاً عظيماً . . . وتكون المفاجأة مذهلة حتى له هو نفسه .

ومثل الإنسان الأمم والمجتمعات والتاريخ . . . وهل التاريخ إلا الإنسان في حركة . . . صدقوني أن دروس هذا العام وأحداثه تعلمنا الكثير .

لماذا يتحرون ؟

- الممثل الأمريكى العالمى جيج يونج قتل زوجته ثم قتل نفسه رمياً بالرصاص . .
- والممثل الفرنسى شارل بوايه مات متحراً وكذلك ماتت زوجته متحرة وكذلك مات ابنه متحراً . .
- ونجمة الإغراء الشهيرة مارلين مونرو قتلت نفسها بالحبوب المنومة . .
- وسوزان هيوارد دمرت حياتها بالخمير . .
- والان ديلون دمر حياته بالمخدرات . .
- وأفا جاردنر لا تفيق من السكر . .
- ومارلين ديتريش أصابها جنون السرقة . .
- وجريتا جاربو أصابها جنون الاختفاء . .

وبين ممثلينا وممثلاتنا كثيرون وكثيرات أدمنوا الشراب لدرجة التلف .
هل هذا هو الفن . . ؟ ! !
إن الفن يقظة وانتباه ووعى وليس غيبوبة . . والإبداع الفني صحو ، بل
هو منتهى الصحو .
ولا يخرج الإبداع من ضباب المخدرات ولا ينمو في بحيرات الخمر ، والفنان
المغمى عليه لا يخرج منه شيء .
إنما هو الوسط والمناخ وتقاليد المهنة والشباب والكسب السهل ، ثم أدوار
الحب التي تعود أن يعيش فيها النجوم بين أضواء الكاميرات وضجيج
الإعجاب . . ثم لا يعود النجم بعد ذلك يدرى متى ينتهى التمثيل ومتى يبدأ
الواقع .
ثم هذه العادة السيئة التي أدمنتها السينما العصرية وتنافس فيها المنتجون . .
عادة تعرية الممثل والمثلة وعرض تفاصيل الحب والجنس على الشاشة الكبيرة .
ابتذال السرية والخصوصية وعرضها في عمومية مطلقة لكل العيون .
التفريط الذي يصبح عادة .
والتفريط يؤدي بالتبعية إلى الإفراط .
ونتيجة التفريط والإفراط ألا تعود الحياة تساوى شيئاً .
تفسد الفطرة بتوظيف الأشياء في غير مكانها . وتنهك الأسرار بعرضها في
غير إطارها .
وتلك هي الثغرة في حياة النجم التي تظل تتسع وتوسع حتى تقضى عليه .
ثم هناك أزمة النجمة التي تعيش على جمالها ثم ترى جمالها يذبل ، وترى

الأضواء تنحسر عنها ، وترى نفسها تدخل في منطقة الظلام ، ثم تختفي أخبارها ، ثم لا يعود يسأل عنها أحد . .

وهو أمر يحدث عادة فجأة بين يوم وليلة تماماً كما في الروايات ، فجأة ينزل ستار النسيان وتنفجر فقاعة الضجيج وتنتهي الشهرة العريضة إلى لا شيء ، تلك هي حياة النجوم . . مكياج . . وديكور . . وأضواء . . وإشاعات . . وبريق مثل بريق السراب . . ثم ما يلبث أن ينطفئ كل شيء . . ولا تبقى سوى فطرة أفسدتها حياة مفتعلة غير طبيعية وذكريات نسجتها الأوهام .

إن النجوم لا يحسدون على ما هم فيه من ثراء وذبيوع وانتشار . . فإنها صنعة مكلفة . . تكلفهم حياتهم ودنياهم وآخرتهم ثم لا يبقى منهم ولهم شيء . وكما يأتي الانتحار نتيجة لحياة مادية متطرفة كذلك يمكن أن يأتي نتيجة لتدين متطرف وتظهر مريض مبالغ فيه .

إن ما أمر به المسيح من قتل النفس (ومراد المسيح كان بالطبع هو قتل الشهوات) . . هذا الأمر يمكن أن يصل به المتطرف إلى رهبانية خاوية قاسية ، أو إلى قتل فعلي بالانتحار كما فعل الأب جيم جونز وطائفته في موعظة الانتحار الجماعي مردداً آية المسيح . . « من قتل نفسه من أجل وجدها » .

وأهل التطرف من اليمين واليسار ، ومن أهل الدين والدنيا هم في الحقيقة أصحاب مبدأ واحد ، وهم واقفون على أرض واحدة مها خيل لهم أنهم مختلفون . . وهي أرض الرفض الكامل والكفر بكل شيء . . ويمكن أن يتمثل هذا الرفض الكامل في قتل الآخرين أو قتل النفس .

والشر يمكن أن يتسر وراء الأقنعة المزيفة ويمكن أن يكسوه العقل

بالمبررات ، ويمكن أن تتوسل إليه النفوس المجرمة بالدين وبكلمات الأنبياء . .
ولكنه يظل دائماً شراً

وقارب النجاة في هذا الخضم من الشرور التي ترصد الكل . . هو
الاعتدال . . والفهم الحقيقي للفضيلة بأنها الوسط العدل بين المتناقضات . .
فهى لا يمكن أن تكون تهورا ، كما أنها لا يمكن أن تكون جبناً . . وهى لا يمكن
أن تكون بخلا ، كما أنها لا يمكن أن تكون إسرافاً . . وإنما هى دائماً فى الوسط
العدل الذى هو الشجاعة والكرم .

وذلك هو الوسط بين نجمة الإغراء مارلين مونرو وبين الأب القسيس جيم
جوتز . . بين انتحار أهل اليمين وانتحار أهل اليسار . .

ولكن بلوغ شاطئ الاعتدال أمر إيجابي يتم من خلال صراع ومجاهدة للنفس
وللغرائز ، ومغالبة للنوازع بين شد اليمين وشد اليسار ، وهوليس أمراً سلبياً يأتي
بالهروب والإغماء والاغتراب وعدم المبالاة . . وهو أيضاً ليس ثمرة ضعف بل
ثمرة قوة وليس ثمرة غيبوبة بل ثمرة وعى .

وشاطئ الاعتدال هو الصراط المستقيم بعينه ، وهو الحق بنفسه ، وهو
لا يأتي نتيجة قراءة عفوية لمقال ، وإنما يأتي ثمرة لإيمان يمازج القلب
والجوارح ، ومعاناة ثمر الصحو .

ولتؤمن بالحق لا بد أن نكون على صلة بالحق ، والحق هو الله سبحانه
وتعالى ، وهذا يعود بنا إلى الدين كمنبع وحيد للأخلاق والتكامل .

الدين إذن هو همزة الوصل الناقصة التي تؤدي إلى هذه الانفجارات
الانتحارية ، وهو همزة الوصل الناقصة وراء كل تطرف عدواني أو هروبي .

وغياب الدين من الساحة وراء كل هذه الظواهر التي تملأ أعمدة الأخبار .
وادعاء الدين نفاقاً وكذباً وانتهازاً أخطر من غيابه .
واستغلال الدين والتستر خلف راياته أخطر من الكفر .
وتلك هي الثغرات التي تتسلل منها كل تلك الجرائم .

لماذا الكوارث..

إن كل ما بالعالم من كوارث وأزمات ومحن وحروب ومجاعات ينبع من أصل واحد هو أزمة الضمير الإنساني وما أصابه.

إن السماء لن تجود بالماء ولا الأرض بالحياة وأبناؤها يسفحون عليها الدم بغيا وجورا على بعضهم البعض فخالق الأرض وما تشر من غلات هو الله وهو وحده الذى بيده مرفق المياه الذى ينساب من السماء كما أن بيده تغوير المياه الجوفية التى تخرج من الأرض وهو قد جعل الاجتهاد سببا فى الرزق كما جعل الطاعة والتقوى والمحبة مؤهلات أكبر خطرا.. ولاشك أن الشرور والمحن التى تفرق الأرض يواكبها على الناحية الأخرى موجات الكفر والشرك والوثنية والتدهور الخلقى وتفكك الأسرة وطغيان الظلم وغلبة الشهوات المادية على كل القيم والاعتبارات.. حتى فى

البلاد التي عرفت بتراتها العريق في الدين والتدين نجد أن هذا التدين قد انحسر الآن إلى مجرد شكلية دينية في حين انحرف السلوك إلى مادية مسرفة وراح الكل يتسابق إلى الكسب المادي والثراء العاجل على حساب جميع القيم الدينية.

وإذا كان ما يجري في أثيوبيا بسبب القحط والجفاف من موت الملايين جوعا وعطشا يذيب الفؤاد حسرة وألماً.. فإن ما جاء في تقرير لجنة المعونة البريطانية لأثيوبيا يستوقف النظر فقد جاء في التقرير أن المعونة لاتصل إلى المستحقين وأنها تمنع عن القرى التي بها ثوار وأن هذه القرى تترك ليفترسها الجوع والعطش بينما تذهب المعونة إلى الجيش وإلى القوات الحكومية ويعلق التقرير على البذخ والملايين من الدولارات التي انفقتها الحكومة في الاحتفال بأعياد الاشتراكية وفي الولائم والمسيرات الشبابية والمهرجانات في أديس أبابا بينما الفلاحون يموتون هم وبهائمهم جوعا وعطشا في القرى الاثيوبية وهو كلام يقال في مواطن كثيرة ولدول كثيرة من العالم وليس لأثيوبيا وحدها.

إن الخير.. حتى الخير البحت الذي ينبع من الضمير لا يوزع بضمير ويظل المبدأ هو نفس المبدأ.. أنا آكل وخصمي في الراى يموت.. ماذا يتوقع في عالم كهذا..

إن ما يجري داخل الأسرة وداخل الوطن من مظالم يظهر مكبرا على مساحة العالم كله ثم يعود فيظهر مترجما في أحداث وأزمات وحروب ومحن وأوبئة ومجاعات.

بل أن ما يجرى في ضمير الفرد من صراع وما تسكن رأسه من خواطر
وما تتنازعه من رغبات هو المفتاح للمشكلة كلها..

وإذا كان البحر تلوث.. فقد تلوث بنا نحن وبما أفرزناه فيه،

إن فضلات أفكارنا ورغباتنا هي التي صنعت كل هذا.

سمعت الرجل يلوم زوجته ويلقى على رأسها وعلى النساء أجمعين ما
بالعالم من يؤس.. فهي لا ترضى ولا تشبع ولا تكف عن الطلب وهي كرجاج
لا يكف ينزل على ظهره ليجرى ويهرول ويسعى ويكسب ويجمع ليضع
ما جمع في أيديها لتجرى هي بدورها إلى السوق لتتفق ما جمع وتطلب
المزيد ولا هامش لديها للاكتفاء.

وإذا صدق الرجل في شكواه فهو ملوم هو الآخر مثل زوجته فيبدو أنه
لا هامش لديه للخضوع والرضوخ والضعف والاستكانة.. فهو ملوم لضعفه
بمثل ما هي ملومة لطغيانها ولن تكون الذرية التي ينجبها الاثنان
إلا استمرارا لهذه العيوب وتضخيمها لها مع مرور الوقت.. وهكذا تتفاقم
العيوب بمثل ما تتضاعف الأرقام في متواليات حسابية.. وتتدهور الأجيال
ويتدهور النتاج الإنساني فناً وفكراً وسياسة.. ومع الوقت لن يكون التقدم
العلمي في مثل هذه المجتمعات حسنة بل عيباً لأنه سيضع في يد هؤلاء
الضعاف وسيلة دمار كلية يقضون بها على كل شيء وينسفون بها كل
ما كسبه أجدادهم من تراث الحضارة وما بنوه وما شيدوه بعرقهم
ودمائهم.

إن العلم سوف يسلح الحماقة.
وطاقة الذرة سوف تكون ذراعا للطغيان وأداة لحب السيطرة.
والصاروخ سوف يكون أداة للقهر والاستبداد.
وسوف تتجسد المأساة في هذا المسخ الشائه الذى له ذراعا شمشون
والذى له ضمير وغد محتال.
ولكننا جميعا وضعنا بذرة هذا المسخ ونحن جميعا أنجبناه وربيناها.
ولا يملك أحدنا أن يبرىء نفسه.

وقديما قال عمر بن الخطاب « لو عثرت دابة في العراق لرأيت نفسى
مستولا عما حدث لها » وهى قولة حق.. فما يجرى فى أى مجتمع هو محصلة
أفعال أفراده وكل منهم مسئول بحسب مكانه تصاعديا من القاعدة إلى
القمة.

إن ما يحدث لنا هو نحن وكل واحد لا يقابل فى الطريق إلا نفسه..
المجرم تتسابق إليه مناسبات الاجرام والفاضل الخير تتسابق إليه مناسبات
الخير والعطاء.

ويعتدل ما تجود أيدينا تجود أرضنا وتجود سماؤنا لأن الذى خلق الكون
خلق له القوانين الحافظة التى يزدهر بها طالما كان ناميا والقوانين الهادمة له
إذا دب فيه الفساد ونخر فيه السوس.

وبنية المجتمع مثل بنية الجسم هى فى نماء وازدهار طالما غلبت فيها
عوامل الانسجام والنظام والصحة فإذا غلب الاضطراب والفوضى

والمرض تداعت إلى تراب.

فلا تلوموا القدر ولا تحتجوا على السماء ولا تقولوا ظلمنا ربنا بهذه الكوارث..

بل قولوا ربنا ظلمنا أنفسنا..

ولينظر كل منا ماذا يفعل في دولة نفسه وإلى أى جانب من رغباته ينحاز.. إلى لذاته العاجلة وإلى منفعته الذاتية أم إلى نجدة المحروم ونصرة الضعيف..

إلى الأصنام المادية يتوجه؟؟! أم إلى القيم.. أم إلى رب القيم ثم لينظر ماذا يفعل لا ماذا يقول.. وماذا يخفى لا ماذا يعلن.. وحينئذ سيعرف الجواب على سؤاله.. لماذا كل هذه الكوارث..

لا تستهينوا بالكلمات

إنا نسخر في العادة من بضاعة الكلام ومن أحزاب الكلام .
وهل كان هتلر إلا كلاماً . . وهل دفع ألمانيا إلى جنون العظمة إلا كلام هذا
الرجل ومن ورائه جوبلز وأبواقه ، ثم شباب مجنون يسمع فيشتعل حماسه ويهب
على أوروبا كالإعصار المدمر ، فيصنع الموت والخراب للملايين ؟
ألم تكن أسرى الكلام طيلة عشرين سنة من حكم عبدالناصر نحارب في
اليمن ونحارب في الكونغو ونهتف للصدّاقة الروسية المصرية ونشتم فيصل
والرجعية الإمبريالية الأمريكية ؟
وهل قتل يوسف السباعي إلا رجل كان عقله محشوًّا بالكلام ؟
ألا تستدرج كلمات الحب عظام الرجال إلى مصارعهم ؟ ألا تُلقي بشباب إلى
اليأس والانتحار ؟

وتلك كلمات الباطل وما تفعله في الأفراد والشعوب .
وتلك هي الأكاذيب حينما تخرج على الناس في رموس الصفحات
وتلاحقهم في الإذاعة والتلفزيون والكتب والصحف .
فما بال كلمات الحق وما تفعله .

هل خطر في ذهنك أن كوبا تدخل في حرب مع روسيا وأمريكا وتنتصر على
الائتتين . .

لقد حدث هذا في الماضي البعيد حينما خرجت من قبيلة قريش طائفة
حاربت الروم والفرس وانتصرت على الاثنين . . وقد انتصرت بكتاب هو
القرآن ، حملها من شاطئ الفارسي إلى شاطئ الأطلسي .
ولكن الباطل يذهب بضوضائه فلا يخلف شيئاً ، فكذلك فعل هتلر وكذلك
فعلت النازية ، وكذلك فعلت جيوش التتار والهكسوس ، وكذلك انتهت
غزوات عبد الناصر .

أما الإسلام فهو باق في الأرض بعد أن انهزم أهله . . وهو باق إلى أن تقوم
الساعة . . برغم ما أصاب أهله وشعبه من ضعف وتأخر وانحلال .
إنها الكلمات . . وسحر الكلمات . . وسلطان الكلمات .

فالكلمات حتى الباطل الكاذب منها يفعل ويؤثر ويقتل ويغير التاريخ .
ماذا فعلت كلمات الماركسية ووعودها وشعاراتها ؟ إنها قلبت نصف العالم
على نصفه الآخر ومازالت تدفع وتحرض وتشعل الفتن في كل مكان .
إنها الكلمات . . تلك العبوات الناسفة من الحروف . . التي أودع الله فيها
أسرار الخير والشر .

وعلم الله آدم الأسماء كلها ليكون سيداً على الأسماء . سيداً على الكلمات كلها
يستخدمها ولا تستخدمه .

ولكن الوضع انقلب فأصبحت الكلمة هي التي تحكم الإنسان . .
أصبحت حاجبة للعقل بدلاً من أن تكون كاشفة للبصيرة .

وما أشد وقع الكلمات حين تكون شعراً .

وما أقسى حكمها على صاحبها .

ألم يفر المتنبي من قطاع الطريق الذين هاجموه فقالوا له في سخرية كيف تفر
يا جبان وأنت القاتل :

الخيل والليل والبيداء تشهد لي

والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فلوى المسكين عنان جواده وعاد ليقاتل دون ماله حتى قتل .

وكان بيت الشعر في الماضي ينفجر بين البوادي كالقنبلة الموقوتة ويشعل
الحروب . . وهو الآن فتيل الإغراء الذي يحرق القلوب ويغوى العذارى من
خلال الأغنية والموسيقى والألحان .

وتلك هي الكلمات .

والكلمة تخرج من فم الرجل فتكون طلاقاً بائناً ، أو مودة ورحمة . .
والكلمة تخرج من فم الحاكم فتكون حرباً أو سلاماً أو استبداداً وإرهاباً ،

ومتى خرجت الكلمة من الفم فلا سبيل إلى استردادها .

إنها تخرج كالطلقة ولا تعود .

ونحن أحياناً نصور بالكلمات أشياء ثم نحجبها . . وما نحجب إلا كلماتنا وإن ظننا
أننا أحيينا الأشياء .

إن عالم الكلمات يجب عنا الحقائق كما تفعل الأستار والأقنعة
والديكورات ، وكما يفعل الطلاب المزرکش الذى تزوج به البضاعة الرديئة .

يقول العارف بالله محمد بن عبد الجبار بن الحسن النفرى :

* الحرف حجاب على معناه ومعناه حجاب على ماهيته .

* الحرف لا يمكن أن يعبر عن الله سبحانه لأنه من مخلوقاته . . إنما الحرف

رمز وسرادق إظهار لما بيدي الله من آيات .

* غرقت الدنيا والآخرة فى الحرف ولا يغرق الحرف إلا برؤية وجهه

سبحانه .

ويقول له ربه :

* لا ترانى إلا إذا تخطيت الحرف والمحروف وتجاوزت الكلمة والخاطر

وفهمت بلا عبارة .

ويقول له :

* إن لى عبادة صامتين رأوا جلالى فلا يستطيعون أن يكلموه ، ورأوا بهانى

فلا يستطيعون أن يسبحوه ، فلا يزالون صامتين حتى آتيتهم فأخرجهم من مقام

صمتهم إلى . . اصممت لى ما استطعت تكن عبدى الصامت .

عبدى الصامت أتلقاه قبل موقفه ، وأشيعه إلى داره . . وهو أول من أدعوه

إذا جئت .

بين النطق والصمت برزخ فيه قبر العقل وقبور الأشياء .
ويقول له :

* يا عبد إن مجدتني بتمجيد الحرف لهوت بلهو الحرف .
يا عبد إن تبت بلسان الحرف نقضت بلسان الحرف ، وإن أطعت بلسان
الحرف عصيت بلسان الحرف .

يا عبد نزه تمجيدى عن الحرف وحدود الحرف . اكتب سبحتك بيدى على
ظلى وأجعلك إذا التقينا من أهلى .
ويقول له :

* الحروف مادة الخواطر ومادمت أسير الخواطر فأنت فى شتات .
لا تكون فى جمعية معى إلا إذا جزت الخواطر ، ولا تجوز الخواطر إلا إذا
خرجت من الحروف .
ويقول له :

* اخرج عن مسميات الحرف تخرج عن معناه ، فإذا خرجت عن معناه
فأنا أقرب إليك من جبل الوريد . . اخرج عن كلمة جبل وعن كلمة وريد وعن
لفظة «أنا» فإذا خرجت عن لفظية «أنا» فأنا الظاهر والباطن وأنا بكل شىء
علمى .

ويقول له :

* الحرف فج من فجاج إبليس .

ويقول له :

* الحرف حرفى والعلم علمى وأنت عبدى لا عبد حرفى عبد علمى .

ويقول له :

« يا عبد من رآني جاوز النطق والصمت وجاوز العلم والجهل وجاوز
الحديّة .

ويقول له :

« يا عبد إذا أردت ألا يخطر بك سوى ، وإذا أردت أن تخرج عن
الكلمة والعبارة وما تحويه من قن الدنيا وبآياتها فأقم في « النفي » في عتبة لا . .
لا إله إلا الله . . واعلم أن النفي لا يكون إلا بي ، كما أن الإثبات لا يكون
إلا بي . .

وأني أنا الذي سوف أنفيك بفضلني عن « السوى » وسوف أثبتك بنعمتي في
جواري وعندتي .

تلك إلهامات رجل مضى على وفاته أكثر من ألف عام . . وأدرك بعلم من
ربه أن الكلمة غواية ، وأن الحرف فج من فجاج إبليس . . وأنه لا كمال
للإنسان إلا إذا عبر وجاوز الحروف واخترق حجاب الكلمات .
ولقد مات الرجل وغبر .

ولقد هلكت أمم وغبرت لأنها وقعت في أسر الحروف واستعبدها الكلمات
وأغوتها الشعارات ولعبت بها شياطين العبارات .

يقول ذلك العارف العظيم إنه لا وصول لوصل إلا إذا خرج من حجاب
الكلمات والحروف .

ولكن الكلمات والحروف هي سرادق إظهار لكل ما في الدنيا .
الكلمات هي الوعاء لكل ما ترى ونسمع ونحس .

والخروج من الكلمات هو خروج عن الدنيا بحدودها وصورها .
وهو خروج عن سيطرة الأشكال وعن سيطرة كل جميل .
ولا خروج من هذه الفتن إلا بالخروج من النفس لأن الدنيا هي مجال
النفس ومطمعها ومعشوقها .

إنه الخروج من جلدك وأنت في جلدك .

يقول نبينا عليه الصلاة والسلام . . « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » أى
انتبهوا إلى أنه لا إله إلا الله . . ولا يكن لكم تعلق بغير الله وأنتم فى الدنيا . .
ويقول :

« عش فى الدنيا كعابر سبيل » أى بدون تعلق بشىء لتموت سليم القلب .
ويقول القرآن عن يوم القيامة :

(يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) .
أى سليم من جميع التعلقات . . ليس فيه إلا الله . . وتلك هى الطهارة
الإسلامية بمعناها العميق .

ويقول نبينا عليه الصلاة والسلام « من تعلق بشىء وكل إليه » أى إذا
تعلقت بغير الله خرجت من ولايته .

فأين نحن الآن من هذه الذرة الرفيعة .

وأين حضارتنا ومدنيتنا من هذه العتبة العالية التى كان يقف عليها ذلك النبى
الكامل ومن بعده ذلك الصوفى العظيم .

وكم من مئات السنين تخلفت الإنسانية بعد هذه الذرة التى تقف وحدها
وكأنها منارة وحيدة شاحنة فى بحر من الضوضاء والكلمات .

ولقد حقق نبينا العظيم معجزة أكبر مما حقق كل الصوفيين وكان شيخاً لهم
جميعاً ولكل الأجيال من بعدهم .

لقد نزل إلى الدنيا وياشرها دون أن يتعلق بها ، وعرف الغنى فكان غناه كله
للناس . . . وتعددت زوجاته فلم تشغله إحداهن لحظة واحدة عن ربه ، وكان
سيداً وحاكماً وملكاً فلم يججب عنه الملك تواضعه وعبوديته طرفة عين . .
وباشر الكلام أحلى الكلام فلم تفتنه عباراته ولا حجبه عن عجز الألفاظ
وقصورها إذ يناجى ربه قائلاً . .

« اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بعفوك من عقابك ، وأعوذ
بك منك .

لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك . . فقد توقف مقراً
بالمعجز ليقول :

لا أحصى ثناء عليك . . أنت كما أثنيت على نفسك ثم يقول :

« أعوذ بك منك .

فقد وسع الله كل النفع وكل الضر» .

ولم تعد الكلمات تصلح للتعبير .

فإنه هو هو وليس بعده شيء .

تلك هي الشخصية الجامعة التي ضرب بها النبي مثلاً للكمال البشرى حينما
ينحوض الدنيا فلا يفقد طهارته ولا تتفرق همته بل يزداد بالمباشرة كمالاً على كمال .

وذلك هو المثل الأعلى للتصوف السني العالی (علم وعمل ومسئولية وقيم

وأنحلاق وعبادة لله ابتغاء وجهه)

وصاحبنا النفرى كان مثلاً آخر لتصوف أهل الخلوات وأهل التجرد وأهل التأمل وما بلغنا من هذه الأمثلة العظيمة شيئاً . . فما استطعنا أن نتجرد . . ولا استطعنا أن نخوض الدنيا ونسلم من أوحالها بل غرقنا فى الكلام .
نقلد الغرب مرة فنرطن بالإنجليزية والفرنسية واللاتينية .
ونقلد الشرق مرة فنرطن بالروسية .
ثم نعود إلى هويتنا . . فنبدأ بالكلام وننتهى بالكلام .

الجهلُ العِلْمِي

العلم وحده لا يكفي لأن يصون صاحبه . . فنحن نعلم ضرر التدخين
وتدخن ، ونرى الطبيب يعلم متالف الحمر ويشرب . . ونرى أكثر الناس يتبعون
الشهوات والأهواء مع علمهم بحيوانية الشهوات وضلال الأهواء .

ونرى الأدباء والفنانين طلائع الوعي وقادته . . أهل إدمان وضحايا
مخدرات .

ونرى القاضي يرتشي .

ونرى رجل القانون يسرق .

ونرى شرطة الأمن يعتدون على الأمن .

ونرى شهود الحق يحترفون الكذب .

ونرى أكثر الناس تهالكاً على الطعام هم كل يطين سمين أكرش ممن يعلم أن
في الأكل مقتله .

ونرى أستاذ الجامعة وحامل الدكتوراه يموت بالسكتة في ملعب الكرة لأن
الهدف دخل مرمى الأهلي أو مرمى الزمالك . . فهل جهل الأستاذ المتعلم أن
مايجرى أمامه في الملعب هو محض لعب . . وماذا نفعه علمه .

ونجمع كلنا على أن ما يعرضه التلفزيون سخف ومع ذلك نتجمع حول
الشاشة ونمضي نحملق فيها كالبلهاء نخرج من سلسلة لندخل في سلسلة .
ونرى رجل الدين أول من يسقط فيما ينهى الناس عنه . . فهل جهل
الحلال والحرام ؟ ! !

إن الحيوان ليعلم الحلال من الحرام . . والقطة تأكل ما تلقيه لها بيدك وهي
جالسة عند قدميك تموء وتمسح فإذا خطرت لها سرقة لقمة كان لها موقف آخر
فراحت تتلفت وتحالس النظر عن يمين وشمال ثم هبشت قطعة السمك وولت
الأدبار لتأكلها في الخفاء . وهي أفعال تدل على تمييز مؤكد بين اللقمة الحلال
والحرام . . والقطة حيوان . . وهي لم تدرس الفقه في الأزهر . . فما بال رجل
الدين الذي تفقه وتعلم .

ليس العلم إذن هو مفتاح الشخصية .
ويمكن أن يكون عندك علم اينشتين ولا ينفعك علمك بل تكون أدنى الناس
أخلاقاً وأردلهم معاشرة .

وما اختلفت منازل الناس الخلقية بسبب تفاوتهم في العلم . . بل سبب
تفاوتهم في شيء آخر . . هو الهمة والعزم . . فعلمك بضرر التدخين لا يكفي لأن

تجنبه وإنما الأمر يحتاج إلى شيء آخر هو الهمة والعزم . . وهذا أمر لا يتحقق إلا إذا تحول العلم في داخلك إلى شعور ومازج القلب فأثمر النور والكرامية للأمر الضار واستنهض الهمة إلى رفضه .

وبالمثل لا يردع الدين صاحبه إلا إذا تحول العلم الديني فيه إلى تمثل وشخص وحضور للجلال الإلهي فأصبح يعبد ربه وكأنه يراه فتوقظ فيه تلك الرؤية الخوف والحب وتستنهض ما تراخى فيه من عزم وهمة .

وبدون هذه الهمة لا يثمر العلم أخلاقاً ولا يثمر حكمة . . بل ينقلب العلم إلى النقيض ويتحول إلى أداة بطش وظلم . وتلك هي جاهلية العلم التي نراها اليوم . . فالأجهزة الإلكترونية تستخدم في السرقة . . والذرة في الهدم . . والكيمياء في ابتكار المخدرات . . والتكنولوجيا في الحروب . . والطب في منع الحمل وإطالة اللذة . . والأقمار الصناعية في التجسس . . وعلوم الفضاء في وضع القنابل المدارية حول الأرض وتهديد الناس . . والمتفجرات في تعبئة الرسائل الملقومة .

وتلك صورة مكبرة لقوم « عاد » الذين قال فيهم القرآن :

(أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، وإذا بطشتم بطشتم جبارين ، فاتقوا الله وأطيعون ، واتقوا الذي أمركم بما تعلمون)
(١٢٨ - ١٣٢ الشعراء)

يقول لهم (اتقوا الذي أمركم بما تعلمون) ليذكركم أن هذا العلم الذي استخدموه في الشر والعدوان كان مدداً منه ، وأنه لو شاء لتركهم على البداوة والجهل فأولى بهم أن يتقوا .

وفي مكان آخر يقول عنهم :

(ألم تركيب فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في
البلاد) (٦ - ٧ - ٨ الفجر)

فتلك هي روسيا وأمريكا في صورة مكبرة بإمكانات القرن العشرين . .
تلك الدول العملاقة التي لم يخلق مثلها في البلاد . . وترسانات الحديد والصلب
ذات العماد والجيش ذات الأوتاد . . والطغاة الذين يبطشون جبارين . .
والعقول التي تسهر لتزرع قلوب الموتى في أبدان الأحياء ، وتخضر الصحارى ،
وتجوب الفضاء ، وتستولد الأجنة في الأنابيب وتسمى إلى الخلود .

علم هائل يتقدم كل يوم في عالم تتضاءل فيه الرحمة كل يوم ويذبل فيه
الحب كل يوم مفسحاً الطريق إلى جاهلية شرسة مخيفة .

فهل يصدق علينا مثل الأولين ويأتى أمر الله فيجعل على هذه الحضارة
سافلها ؟ أو نحن أمام بعث ديني وفجر روحي يعيد لهذه الحضارة توازنها فتمشي
معتدلة على قدمين بدلا من هذا القفز الأعرج على قدم مادية واحدة .
أعتقد أن الفجر القادم سيؤذن ببعث ديني يغير الموازين وأنا أمام أحداث
جسام . . أحداث رحمة لا أحداث نقمة . . فهذا هو الطبيعي بعد فترة طويلة
من انقطاع النبوات تجاوزت ألف عام .

من الطبيعي بعد أربعة عشر قرناً من الفترة أن تعود كلمة الله فيكون لها العلو
من جديد في عالم يتعطش لهذه النفحة التي فيها حياته و ينتظر النور في عصر
أطبقت عليه الظلمات من كل جانب .

أهو نزول المسيح . .

أم ظهور المهدي . .

لا أستبعد هذه الأمور فنحن ولا شك نعيش في زمن «الدجال» . . وإن لم يظهر الدجال بشخصه بعد فهو موجود في كل مكان من العالم بفكره وحيله وأساليبه وفلسفته . . ولم يبق إلا أن يعلن عن نفسه ثم تبدأ أحداث النهاية . ولا يمكن أن يقطع الله عن عباده مدد رحمته وهم أحوج ما يكونون إلى تلك الرحمة فإنه سبحانه هو الرحمن الرحيم خلقنا برحمته ووسع خطايانا برحمته وأفسح لنا بعد الموت جنات رحمته .

لعبة تحرير الشعوب

يستخف بالإنسان الغرور أحياناً فيتصور أنه يمتلك مقاليد كل شيء ، وأنه يرزق ويعطى ويمنع ، ويبنى ويعمر ، ويحيي موات الأرض ، ويرفع الاستغلال عن كاهل الناس ، وينشر العدل والخير ، ويغير التاريخ .

ألا يمتلك العلم الذى ينقل به الجبال ، ويحول مجارى الأنهار ، ويقم السدود ، وينزل المطر ، ويخضر الصحارى ، ويشفى المرضى ، ويطارد الميكروب ، ويقضى على الفيروس ؟

وهو ينخدع فى نفسه حينما يرى الظروف تستجيب لإرادته والبيئة المادية تنقاد لمشيئته ، والعجينة الاجتماعية تتشكل فى يده وتذل لسلطانه .

تلك الخدعة كانت الخميرة التى خرج منها الجبابة والطغاة وسفاحو الشعوب أمثال : نبيون وهتلر ، وستالين ، وفرانكو ، وسالازار ، وموسوليني ،

ومونجستو . كل منهم تصور نفسه المحرر والمخلص واليد الخضراء ، وانخدع في نفسه حينما استجابت له الظروف وانقادت البيثة وأسلمت الجماهير ، فرأى نفسه ينجز ويبنى ويعمر ، ويقم المشاريع من عدم ، ويغير الخريطة الجغرافية ويبدل الخريطة التاريخية .

وادعى كل منهم فلسفة ومذهباً يبرر به ما يصنع حينما يحتاج الأمر إلى قتل المئات وسجن الألوف .

ستالين استخدم الراية الماركسية ليقول إنه يحمر الشعب من الجوع ، وإن الحرية هي أن يجد كل واحد ما يأكله ، وأنه سيوفر هذا للناس وليس لأحد أن يقول لا أو يحتج أو يعترض وكل من يعترض مخرب ومنحرف ورجعي عقابه الإعدام والسجن والتشريد .

وبهذا أعدم خمسة ملايين فلاح اعترضوا على نزع ملكياتهم الصغيرة ، وقال في بساطة شديدة إنه قتل هؤلاء الفلاحين من أجل الرخاء والتقدم والعدل والحرية . . وغسل يديه من الأمر كله .

والجبارون على الشاطئ الآخر اتخذوا لأنفسهم مذهباً آخر وديناً آخر يبررون به القتل .

قال كل منهم إنه محرر الشعب ، وإنه يطلق يد الكل في الملكية والاستثمار والإنجاز والإثراء دون حدود ، ولينتافس الكل في بحر السوق فإذا أكل السمك الكبير السمك الصغير فهو لن يتدخل ، فهو يجب التنافس الشريف ، وإذا ظهرت حيتان تحتكر الماء والضوء فيمكن لمن يريد أن يصرخ ويحتج ويقول ما يشاء ضد من يشاء في البرلمان فنحن بلد حر وأنا جررت الجميع .

وقال كل واحد من هؤلاء الجبارين إن نظامه ديموقراطي ، وارتفعت
جمعجة الإذاعات بين اليمين واليسار ، يدعى كل نظام أن ديمقراطيته حقيقية
وديمقراطية الآخر مزيفة .

واستمر القتل والظلم والسجن والتشريد في الجانبين .
وتصور الجالسون على مربع السلطة أن هذا ثمن طبيعي للمنجزات الاجتماعية
والتعمير والبناء .

واستمعنا نحن في خلال عشرين عاماً إلى هذه النغمة المخدرة . . نغمة
المنجزات والتعمير والبناء والكرامة والحرية ، في حين كان القهر والقتل والسجن
وانتهاك العقل وانتهاك الكرامة وانتهاك الحرية هي المأساة التي يعانها كل بيت على
أيدى مراكز قوى لخدمة الجالس على مربع السلطة ، والذي كان يغسل يديه من
كل خطية ، معتقداً في براءة شديدة أنه يصنع لنا الحرية والخبز والتقدم .
ولكن استجابة الظروف لم تستمر ، وانقياد البيئة لمشينة الجالس على مربع
السلطة لم يدم ، ومعجزة العلم الذي ينقل الجبال ويحول مجارى الأنهار ويخضر
الصحارى لم تثمر المتوقع منها .

فالأرض التي أخرج منها الإنجليز دخلها اليهود ، والقناة التي أممها ردمها ،
والوحدة التي أعلنها انقلبت انفصالا ، والتحرر من أمريكا انتهى إلى الوقوع في
قبضة روسيا والتأميم لرفع الإنتاج أدى إلى خفض الإنتاج ، والتوسع في العمالة
انتهى إلى بطالة مقنعة ، وألوف من الموظفين مكدسون في المكاتب لا يعملون
شيئاً . . ومجانبة التعليم دون توسع مناظر في المدارس والفصول والمحتمرات انتهت
إلى تكديس ألوف الطلبة في الفصول وتدهور التعليم . . وصاحبنا الذي كان

يحارب في الكونغو واليمن والسودان والجزائر وكان يحرض كل الشعوب على تحطيم كل العروش . . صاحبنا هذا حينما واتته الفرصة الذهبية ليحارب في مصر بلده . . انسحب .

ماذا حدث ؟

هل أخطأت الحسابات ؟

لماذا لم يعد القدر يستجيب ؟

إن هذا لم يحدث لنا وحدثنا بل نراه يحدث لجميع الجبارين من كل مذهب .

خرج في روسيا من أحرق ستالين ، وأجذبت حقول أوكرانيا الخصبة التي كانت تتدفق بالقمح ، واعترف خرشوف بالهبوط الخطير في الإنتاج الزراعي وسوء الإنتاج الصناعي بسبب التأميم .

وجاءت فرقة كومسيجين برجنيف لتطلب الخبرة الأمريكية ورأس المال الأمريكي لتعمير سيبيريا ولتفتح فروعاً لبنك منهاتن في روسيا .

ورأينا أمريكا على الجانب الآخر تأخذ الصين بالأحضان ، ثم رأينا الإخوة الشيوعيين يقتل بعضهم بعضاً في فيتنام وكمبوديا .

ورأينا الصين ترفع عصاها على روسيا ، وسقط الشاه في إيران هو ونظامه برغم المساندة الأمريكية ، ورأينا يخرج هو وأسرته مهرولاً يبحث عن ملجأ على أثر صيحة أطلقها رجل عجوز في الثمانين اسمه آية الله الخميني .

ماذا حدث ؟

هل أخطأت الحسابات ؟

لماذا لم يعد القدر يستجيب لهؤلاء القادة العظام كما تعودوا وكما تعودنا منهم ؟
السر بسيط . . إن أكنوبتهم قد افتضحت ، فلم يكن أحد منهم في أى
وقت يملك مقاليد كل شيء ، ولم يكن الرزاق الوهاب المانع المعطى ، ولم يكن
المحيي والمميت ، وإنما أجرى الله على يديه ما خدعه لبعض الوقت فظن نفسه
محرر الشعوب وصانع الخبز والعدل والخير ومخضر الصحارى . .

فلما أصابه الاغترار وتصور نفسه مطلق اليد في الأقدار والرقاب وأنه وحيد
عصره لا يسأل عما يفعل ولا يحاسب نزع الله عنه الخلافة وكشف له عورته وأظهر
له نقصه وقصم رايته .

فالحقيقة أنه لا أحد يستطيع أن يرزق أو يعطى أو يمنح أو يبنى أو يعمر
أو يمنح حرية أو يرفع ظلماً إلا الله ، وأن كل ما يفعله الإنسان من هذه
الصالحات هو فعل بالوكالة والا ستخلاف والإذن والمشية الإلهية ، وأن الحاكم
طول الوقت مجرد أداة لمشية الخالق ، والأسباب الطبيعة في يده مظهر من مظاهر
التيسير والتمكين الإلهي

فكيف يستطيع حاكم أن يمنح الحرية لشعب وهو عاجز عن منحها لنفسه ،
فقد يصحو ذلك الحاكم الجبار فلا يجد ذراعه ولا ساقه ويجد نفسه مشلولاً
سجين فراشه لا يستطيع أن يبرحه ، وقد يفقد بصره في لحظة بانفصال شبكي
فلا يرى طريقه . . ثم هو يموت في النهاية وينفق كالدابة بين كوكبة من الأطباء
ومظاهرة من العلم فلا ينفعه علم ولا طب فكيف يمنحنا الحياة من لا يستطيع أن
يمنحها لنفسه ؟ وكيف يحررنا من لا يستطيع أن يحرر نفسه ؟ وهل نفعت شاه

إيران سبعة آلاف مليون دولار وهو يبحث عن سكن فلا يجد . . . وهو يأكل فلا
يهضم ويضطجع فلا ينام ؟
يأبىها الناس

متى تعلمون أن الحاكمية لله وحده ؟
وأنه وحده الذى يرزق ويعطى ويمنع وينبئ ويعمر ويخضر الصحارى ويغير
التاريخ ويبدل الجغرافيا .

وأنه وحده المحرر والمخلص .
وأنه خالق الحرية فينا بالأصالة . وأنا نختار به وبما وهبنا من قدرات على
الترجيح والإرادة والتنفيذ .

وأنا نرزق ونعطى ونمنع وننبئ ونعمر بما يمدنا من أسباب .
وأنا نحكم استخلاقاً منه وتوكيلاً عنه ولا نستطيع أن نفعل هذا إلا بإذنه
ومشيئته ، وأنه استخلاف بأجل وميقات . . .

لا يستطيع جبار مها بلغ جبروته أن يمد في حكمه يوماً أو ساعة أو ثانية ،
وإنما ينجح الحاكم في الإصلاح والتعمير والتغيير وتثبيت قدمه إذا حكم بالموافقة
والانسجام مع القوانين والسنن الإلهية وإذا أحسن الخلافة والوكالة عن سيده .
فإذا خرج عن القوانين الإلهية إلى حكم هواه وشهواته وإذا نسى ختم
التوكيل وظن نفسه السيد مطلق اليد في مصائر الناس ، وإذا أصابه الكرمي
بدوار الكبرياء والعزة فقد سقط عن كرميه وسقطت عنه الخلافة . . . وانتهى
أمره إلى الإحباط والطرده .

وأخطأ من تصور أن له محرراً سوى خالقه فعلق أوهامه بهذه الدمى

والعرائس التي تتداول على كراسي السلطة . . إنما هو ديكور من ورق اللعب .
وامتحان يعلم به الخالق توجهات قلوب عباده فلا تعلقوا قلوبكم بأحد
سواه ، واعلموا أنه هو وحده الذي يحرك العرائس ويضعها على عروشها ثم
يسقطها ثم يأتي بغيرها ، وأنه هو وحده محرر الشعوب ، وصانع المنجزات ، وأن
الرخاء يأتي من عنده وأن تخضير الصحارى مشروعه وإلهامه والتكنولوجيا بعض
علمه الذي أتاحه لنا . . وأنا لا ندور وحدنا في فراغ . . وإنما نحن طوافون
حوله نتلقى عنه الليل والنهار ذلك هو الله رب العالمين

لا إله إلا هو

له وحده الحاكمية

وتلك هي حقيقة كلمة التقوى التي علمها الله جميع أنبيائه .

لا إله إلا الله .

عن الفن والدين

الفن والدين كلاهما يتنافسان على القلب . . وما أكثر ما أصابت الغيرة رجال الدين فرموا الفن والفنانين بالكفر .
وما أكثر ما تصالح الاثنان فانضوى الفن خادماً للدين يرسم له المحاريب ويزين السقوف وينحت التماثيل ويرتل الأناشيد .
وفي مصر مشرق الحضارة والأديان كانت مسيرة الفن والدين واحدة . .
شيد الفن للدين المعابد والأهرام والمسلات وأبدع له الأغاني والتراتيل ،
وصمم له الرقصات ، وكان موكب جمال وزينة لرجال الكهنوت .
وفي كنائس الفاتيكان أبدعت ريشة ميكائيل أنجلو ورفاييل في رسم الجدران
والسقوف وتآلق فن البناء القوطى في بناء الأبراج ، وفي العصر الإسلامى
ازدهرت العمارة والزخرفة .

ووصف القرآن الشعراء فقال إنهم قوم يهيمون في كل واد ، وأنهم أهل
غواية ولكن منهم الصالحون المؤمنون .

(والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون ، وأنهم يقولون
مالا يفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من
بعد ما ظلموا) ، (٢٢٤ - ٢٢٧ - الشعراء) .

فلم يرفض القرآن الشعر ولا الفن بإطلاقه وإنما جعل من الفنانين فريقين . .
فريقاً من أهل الكذب ، وفريقاً آخر من أهل الصدق والإيمان . . فأقام بذلك
موازين ثابتة للحكم على الفن وتقييمه .

ثم جاء بعد ذلك أهل التطرف والمغالاة فحاربوا فن الرسم والتصوير
والنحت وحرموه على إطلاقه ، كما حرّموا الموسيقى والغناء والرقص .

وسمّعنا اليوم من يقول إن السينما حرام على إطلاقها ، كما أن المسلح حرام
والتليفزيون حرام وكلها موجات من التطرف والتعصب لا أساس لها في قرآن
أو عقيدة .

وكلنا نعلم من السيرة أن النبي عليه الصلاة والسلام استمع إلى شعر الخنساء
واستزاده واستحسنه .

كما أن القرآن فرّق بين الفن الهابط والفن العالى ، وهو ميزان ينطبق على كل
فروع الفن .

وفي الموسيقى هناك السيمفوني الذى يحرك الوجدان وهناك موسيقى الجاز التى
تحرك الغرائز ، وفي المسرح هناك مسرح العبرة والحكمة والعظة ، وهناك مسرح
الهزليات والنكات الرخيصة . . وفي السينما هناك الفيلم التاريخي والفيلم العلمى

والفيلم التسجيلي ، وهناك الدراما العظيمة التي ترى وتعلم كما أن هناك أفلام الإثارة الهابطة والبرونوجرافي الفاحش .

وفي الأغنية هناك القصيد الجميل كما أن هناك الأغنية السوقية العارية . كما أن تحريم الرسم والتصوير والنحت قياساً على ما جاء من أحاديث نبوية في هذا الباب قياس خاطئ ، فالنبي حرم الصور والتماثيل لأنها كانت تعبد وتتخذ في البيوت آلهة . . أما الآن فلا أحد يعبد صورة ولا أحد يسجد لتمثال . ثم دعونا ننظر إلى آيات صنعة الله في الطبيعة .

ألا نراه قد خلق طيوراً تغنى ، وعصافير تغرد ، وخيولاً ترقص ؟
ألا نراه قد رسم أجنحة الفراش وزخرف الطواويس ونحت أجسام الحيتان وعرائس البحر كأنها الغواصات في انسيابها وجمالها ؟
ثم تعالوا نسأل :

ماذا تفعل بنا مشاهدة مسرحية لشكسبير أو الاستماع إلى سيمفونية لبتهوفن
أو رؤية باليه بحيرة البجع ؟
هل تنحط بنا هذه الفنون أو ترتفع ؟
هل تستحضر في الذهن شهوات غريزية أو تستحضر خيالات ملائكية
ومعارف إلهية ؟

إن الفن الراقى يقيم معبداً للجمال في القلب .
وهل ربنا إلا الجمال والكمال والحق والخير .
إن القرآن على ترفعه وقداسته قد روى لنا جانباً جنسياً من حكاية يوسف وامرأة العزيز ، وكيف غلقت امرأة العزيز الأبواب وقالت هيت لك ، وكيف

هت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ، وكيف وجدوا أن قبضه قُطِع من دبرِ
فعلموا من ذلك أنها هي التي راودته عن نفسه .

ولكنها كانت لمحة خاطفة للعبارة لم يعتمد القرآن فيها إلى إفاضة أو تفصيل
أو تجسيد ، وهذا مثال ومقياس نفهم منه أنه يمكن أن تتطرق الرواية إلى الجانب
الجنسي فتلمح وتوجز بالإشارة الخاطفة ودون إفاضة وتجسيد وتفصيل وإثارة
فلا يتنافى هذا مع جلال الهدف وجمال الأثر .

ومن ذلك نفهم من آيات الله في كتابه ومن آيات الله في كونه أن الفن
والجمال كالعلم والفكر نشاط إنساني محمود وعظيم وأنه من آثار نفخة الله الربانية
في آدم ونسله ، وهي النفخة الروحية التي استوجبت سجود الملائكة وتسخير
الكون لهذا المخلوق من طين .

(إني خالقي بشراً من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له
ساجدين) .

أما الغلاة والمتطرفون الذين يريدون تحريم كل الفنون على إطلاقها فهم من
الذين يريدون أن يطفثوا نور الله بأفواههم .

ويأبى الله إلا أن يتم نوره .

وهم الجاحدون بنعمة الله حقاً .

أو لعلها الغيرة من دائرة الضوء التي يقف فيها الفنان عاصماً بجمهوره .
أو لعلها الفتنة التي تورث الفنان الغرور فتهبط به من رفيف الملائكة إلى
وسواس الشياطين . وكل الواقفين في دائرة الضوء معرضون لدوار الرؤوس
وغواية النفوس إلا من عصم ربك .

ولكن تظل قضية الفنان وعيوبه قضية أخرى غير قضية الفن ومكانه .
فقد بدأ الإنسان يرسم ويصور من بدايات العصر الحجري فكان منه علامة
على إنسانيته ولا يزال .
والفنان مهما طوحت به الأهواء والشهوات تراه ساعة يمسك القلم قد تجرد
وتحول إلى راهب متبتل راعش القلب ساجد الفؤاد .
ولا غرابة في ذلك فدد الدين والفن من عين واحدة ، هي العين التي
تنورت بها كل المظاهر وهي العين التي اخضرت بها الصحارى وازدهرت الحياة
وأضاءت النجوم وابتسم الوليد وغرد الكروان .
الفنان ورجل الدين كلاهما يأخذان من يد واحدة .
إنما يسقط الفنان حينما يتصور أنه يأتي بما يأتي به من عند نفسه . . وتلك
هي بداية الغواية .

كلنا فى نفس السفينة

السارق الذى يسرق فى غفلة من العيون يتصور فى العادة أنه يقوم بعمل من أعمال الذكاء . . كما يظن الانتهازى الذى يقفز على أكتاف الآخرين بالرشوة واختلاس الفرص أنه أمهر وأقدر من غيره . . كما يتخيل صاحبنا الذى يخترق إشارة المرور أو يحدث أعلى ضوضاء فى الشارع أو يلقي بمخلفات بيته أمام باب جاره أو يتهرب من الضريبة أنه شاطر وصاحب حيلة وأنه استطاع أن يفوز بنصيب الأسد فى مجتمع المغفلين .

ولو أن هؤلاء تابعوا فاتورة أعمالهم إلى مجموعها النهائى ، وتابعوا ما تعرضوا له من خصومات لفوجئوا بأن الأعمال ترتد على صاحبها دائماً فالذين يخترقون إشارات المرور يتعطلون فى النهاية أمام اختناقات وحوادث تخصم من رصيدهم وأعمالهم أياماً وشهوراً فى المستشفيات . . والذى يتبول فى النهر هو الذى يشرب

منه . . وعادم السيارة يزكم أنف صاحبها كما يزكم أنوف الآخرين . . ورشاش المبيدات يقتل الحشرة الضارة والحشرة المفيدة ويصيب السمك في البحر والفاكهة على الشجر ويصل إلى لبن المروض ولا يزال يتنقل حتى يصل إلى أكباد هؤلاء الذين رشوا المبيدات وإلى أيديهم فيشلها ويتلفها .

إن الشر والفساد له دورة يدور فيها يوزع فيها الأضرار على كل من يمر بهم ولا يزال يتنقل حتى يصل إلى صاحبه فيصيبه . .
وهذه الدورة لا تعنى أحداً . .

كلنا في نفس السفينة .

والذى يخرق السفينة أو يحاول أن يسرق منها لوحاً أو مسباراً سيكون نصيبه الغرق مع الباقين . لن يقول أفلت بنصبي من مجتمع المغفلين . . فحقيقة الأمر أنه أول هؤلاء المغفلين وأكثرهم غباء . وأنه لن يفلت .

وإنما أذكى الكل هو الصادق المستقيم الفاضل الأمين .

ولو أدرك المجرم أن جريمته ستصيبه لتردد في ارتكابها ولكن قصر النظر صور له أنه سيهرب والحق أنه لم يكن يرى أبعد من أنفه .

فالعالم اتصل الآن وتقارب وتلاحم وأصبح كنقطة في فنجان . وقنبلة ذرية تطلق في صحراء نيفادا يمكن أن تغير علاقات الطقس في القلبيين وتثير غباراً ذرياً يؤثر على المواليد في أستراليا ويقتل الأجنة في اليابان . . ولذلك يجتمع الآن السياسيون العقلاء ليتفقوا على عدم تفجير القنابل الذرية وعلى الحد من الأسلحة النووية ، وعلى الحياة في السلام ، لأن الحرب سوف تقضى على الغالب والمغلوب ولن يسلم من المعركة أحد .

إن تاجر المخدرات لن يهرب سليماً بغنيمته فقد خلق مجتمعاً من المخدرين وهو يعيش ضمن هذا المجتمع ويتعامل معه وسوف تصيبه الشرور التي أطلقها إن لم يكن اليوم فغداً أو بعد غد وإن لم ترتد عليه فعلى بيته وأولاده .
والعالم بفضل العلم والأقمار الصناعية واللاسلكى والتلكس والتلفزيون أصبح صغيراً جداً . . أصبح غرفة واحدة وعائلة واحدة يرى الواحد فيها الآخر ويكلمه بمجرد الضغط على زرار .
فأين يهرب المجرم بجريمته ونحن في سفينة واحدة .
متى ندرك هذا ونعيه جيداً ؟ ! ! !
لو أدركناه ووعيناه جميعاً لانتهى الإهمال والتواكل والرشوة والتسيب في بلدنا ولأصبحنا على مستوى المواطن الأوربي في شهور .

من هو العارف بالله ؟

معرفة الله خشيته ونخشيته طاعته ومن لم يطع ربه فما عرفه ولو كتب المجلدات ودبج المقالات وألف النظريات في المعرفة الإلهية .
ولقد كان إبليس فيلسوفاً عالماً ومجادلاً وكان يبهر الملائكة بعلمه وفلسفته حتى لقد سموه طاووس العابدين لفرط زهوه بعلمه وعبادته ، وقد ظل سبعين ألف سنة يعبد ويتفلسف ويجادل ، والملائكة يتحلقون حوله يستمعون ويعجبون . . . ولكن الله كان يعلم أن هذا المخلوق المختال المزهو المتكبر الذي يحاضر في المعرفة الإلهية هو أقل مخلوقاته معرفة به وأن كلامه لا يدل على قلبه . وإنما سيد الأدلة على المعرفة وعدمها هو السلوك عند الأمر والنهي (ساعة يتصادم الأمر مع الطبع والهوى ويمجد المخلوق نفسه أمام الاختيار الصعب) وهذا هو ما حدث حينما جاء أمر الله ، لإبليس بالسجود لآدم فشق ذلك على كبريائه

واستعلائه وزهوه وساعتها نسي ما كان يحاضر فيه منذ لحظات . . نسي مقام ربه العظيم وجلاله وعظمته ولم يذكر إلا أنه مأمور بالسجود . ولمن ؟ ؟ لبشر من طين وهو المخلوق من نار . : فرد الأمر على الأمر وجادل ربه . كأنه رب مثله .
(قال أنا خيرٌ منه خلقتني من نارٍ وخلقته من طين) « ص : الآية ٧٦ » .
(قال أسجد لمن خلقت طينا) « الإسراء من الآية ٦١ » .
وسقط إبليس مع أجهل الجاهلين فما عرف إبليس ربه حين جادله وحين رد الأمر عليه . .

ولم تغن النظريات التي كان يديجها ولا الحذقات التي كان يهر بها الملائكة والتي كان يصور بها لنفسه أنه سيّد العارفين .
وإبليس اليوم هو العقلانية المزهوة المتكبرة في سلوك وفكر الإنسان المعصرى .

إبليس هو التعجرف العقلاني في الفلسفة الغربية .
وهو الإرهاب الفكرى في الأيديولوجيات المادية .
وهو العنصرية عند اليهود .
وهو سيادة الدم الأزرق في النازية .
وهو وهم الجنس المختار عند البروليتاريا (صناع التاريخ وطلائع المستقبل) .
وهو فكرة السوبرمان عند نيتشه .
فكل ذلك هو الجهل والكبر وإن تسمى بأسماء جذابة كالعلم والفلسفة والفكر .

والحيوان عنده علم أكثر من علم هؤلاء الناس .
القطعة تأكل ما تلقية لها وهي تتمسح عند قدميك فإذا خالستك وسرقت
السمكة من طعامك أسرعت تأكلها خلف الباب . . إن عندها علما بالشرعية
وبالحلال والحرام أكبر من علم رئيس المافيا الذى يقتل بأشعة الليزر ويفتح
الخزائن بأجهزة إلكترونية .

والفلاح البسيط الذى يطوف بالكعبة باكيا مبتهلا عنده علم بالله أكبر
وأعمق من علم دكتور السوربون المتخصص فى الإلهيات .
وأنا ولا شك قد حشوت رأسى بكمية من المعارف الإلهية أكثر بكثير مما كان
فى رأس أبى رحمة الله عليه . . ولكنى لا أرتاب لحظة فى أنه عرف الله أكثر مما
عرفته وأنه بلغ سماء المعرفة بيننا أنا ما زلت على أرضها حظى منها شطحات
وجدان .

وإنما سبقنى أبى بالطاعة والتقوى والتزام الأمر .
وكما قلت فى بداية مقالى معرفة الله هى خشيته ونخشيته طاعته ومن لم يطع
ربه فما عرفه ولو كتب المجلدات ودبج المقالات وألف روائع النظريات .
وما كان الأنبياء أنبياء بمعجزاتهم وخوارقهم وإنما باستقامتهم وأخلاقهم .
ولم يقل الله لمحمد « إنك لعالم عظيم » بل قال (وإنك لعلى خلق عظيم) .
ولقد كان راسبوتين يشنى المرضى ويتنبأ بالمغيبات ويأتى الخوارق وهو أكبر
فساق عصره .

وسوف يأتى المسيح الدجال فيحى الموتى وينزل المطر ويشنى المرضى ويأتى
الأعاجيب والخوارق فلا تزيد معجزاته إلا دجلا .

وما أكثر العلماء اليوم ممن هم مع الأبالسة .
وما أكثر الجهال (في الظاهر) وهم من سادة العارفين .
وما عرف ربه من لم يبك على نفسه وعلى جهله وعلى تقصيره .
ولهذا يقول ربنا عن الآخرة إنها (خافضة رافعة) لأنها سوف ترفع الكثيرين
من عهدناهم في الحضيض وسوف تخفض الكثيرين ممن عددناهم من العلية . .
فلن يكون مع الله إلا الذين عرفوه .

وليس العارفون هم حملة الشهادات وإنما هم أهل السلوك والخشوع
والتقوى وهؤلاء قلة لا زامر لهم ولا طبال . . وليس لهم في الدنيا راية
ولا موكب . . وسلوكك هو شاهد علمك وليس الدبلوم أو البكالوريوس أو
الجائزة التقديرية أو نيشان الكمال من طبقة فارس الذي يلمع على صدرك . .
إنما كل هذه مواهب إبليسية تنفع في دنيا الشطار ثم لا يكون لها وزن ساعة
الحق .

أما العارفون الذين هم العارفون حقا فهم البسطاء أهل الاستقامة والضمير
الذين تراهم دائما في آخر الصف . . إذا حضروا لم يعرفوا وإذا غابوا لم
يفتقدوا . . وإذا ماتوا لم يمش خلفهم أحد .

هؤلاء إذا دفنوا بكت عليهم السماوات والأرض وشيعتهم الملائكة .
جعلنا الله منهم .

فإن لم تكن منهم فخدامهم السائرون خلفهم والطاعمون على فتات
موائدهم .

الخروج من الظلمة إلى النور

يقول الله سبحانه وتعالى في قرآنه :

(هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما) « ٤٣ - الأحزاب » .

أى أن الله يصلى على المؤمنين هو وملائكته (أى يتولاهم برحمته وعنايته) ليخرجهم من الظلمات إلى النور .

والسؤال كيف يتم هذا الإخراج من الظلمات إلى النور وما شواهدة فيما نرى حولنا من تقلبات الناس في أحوالهم .

إننا نراه في تحولات الناس من الكفر إلى الإيمان ومن الجهل إلى العلم ومن السفاهة إلى الحكمة ومن الضلال إلى الرشده ومن الحيوانية إلى الإنسانية ومن الشهوة إلى التعقل ومن التعقل إلى الاستبصار ومن الخطيئة إلى التوبة ومن التوبة

إلى التطهر ومن التظالم إلى التعاون والمروءة . . فتلك كلها مسيرة من الظلمة إلى النور .

فكيف نراها تحدث فينا وفي الناس .

وماذا تقول لنا خبراتنا .

إني أراها تحدث دائماً من خلال المعاناة والمكابدة وتولد بالألم والمخاض والأوجاع .

فالخطب والمواعظ والكتب لا تستطيع أن تصلح إنسانا بل إن النبي بحضرتة الكاملة لا يستطيع أن يهدي واحدا ولا أن يخرج نفسا واحدة من الظلمة إلى النور إلا أن يشاء الله .

(إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) . « ٥٦ - القصص » .

وإنما هو مجرد مبلغ ونذير وبشير .

وكل ما يقال في المواعظ والخطب والكتب هو إبلاغ وإعلام لا يهدي ولا يغير إلا إذا أيدته المشيئة .

وحيثذ سوف تعمل تلك المشيئة من داخل النفس من خلال أسباب قد تبدو أحيانا من الظاهر مادية .

فقد رأينا استنارة أديب عظيم مثل طه حسين ترتبط بسلبه نور البصر وإظلام عينيه .

وقد رأينا كيف أدى هذا الإظلام إلى مكابدة داخلية ومعاناة أثمرت في النهاية انفتاح البصيرة وإلى نور يتدفق على قلمه . .

وهكذا خرج النور من بطن الظلمة .

إن أشد الناس بلاء هم الأنبياء ولقد عانوا جميعهم المرض والفقر واليتم والاضطهاد والقتل والنفي والتشريد والتكذيب ومثلهم الأولياء والمصلحون والحكماء والقادة الشرفاء وأصحاب كلمة الحق في كل عصر .

كلهم كابدوا وتألقت نورهم بالملكابدة

وما أشبه ذلك الإخراج من الظلمة إلى النور بالجراحة وشق اللحم وخروج الأجنة من ظلمة الأرحام من خلال المخاض المؤلم والصراخ والتوجع .
ولهذا قالت لنا الآية - إن هذه المائدة من الآلام تحفها صلوات الله وملائكته .

(هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور)
« ٤٣ - الأحزاب » .

فذلك هو الرحمن الذى يرحم بالعذاب . . . والذى وسعت رحمته كل شىء . . . حتى ليقول لنا عن عذاب الآخرة ونارها .
(باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبليه العذاب) « ١٣ - الحديد » .
الكل مهاجر إلى الله دنيا وآخرة من الظلمة إلى النور . . . ولا توقف للمسيرة . . .

وهى مسيرة يحفها العذاب ويصاحبها الألم .

بل هى كدح

(يأبى الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه) « ٦ - الانشقاق » .
الإنسان على إطلاقه . . . المؤمن والكافر الكل فى كدح وهجرة إلى الله .

البعض يدرك هذه الهجرة ويسعد بها ويفرح بالأمها وهؤلاء هم المؤمنون .
والبعض الآخر لا يدري بها ويظن أنه مكافح بعقله وهؤلاء يسبون الدهر
ولا يدركون أن بعد الألم يأتي الفرج والانفراج ويطيب الثمر . . وهؤلاء هم
الكفرة . . وهم مسوقون في هجرتهم بالعصا والكرباج . . لا تحف بهم الملائكة
بل ترفهم الشياطين .

أما المؤمنون فيهرولون في كدحهم يستعجلون اللقاء ويطربون للقرب
ويستشفون أنوار ربهم على الأفق وتنزل عليهم الملائكة .
(إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا
ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) « ٣٠ - فصلت »
وفي آية أخرى :

(لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) « ٦٤ - يونس »
وهو اعتراف من القرآن بظهور الكرامات ومخاطبات الملائكة للخاصة من
المؤمنين . من أهل الكدح والصبر والاستقامة وهذا زكريا .
(فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب) « ٣٩ - آل عمران »
ومريم . . كانت تأتيها الملائكة بالرزق في سلة وأم موسى .
(وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي
ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) « ٧ - القصص »
فتلك مكالمات ولطائف من صحبة الله وملائكته للمؤمنين في عذابهم
وبشاراته للخاصة منهم .

وهو توكيد لهذه المسيرة من الظلمات إلى النور وكيف إنها مسيرة عذاب

ومعاناة ومكابدة . . وكيف أن النور ينشق دائماً من الظلمة بمخاض وألم وجراحة .

بل أحيانا تكون الجراحة جراحة بدنية بالفعل .
وأنا أذكر أنى أجريت فى حياتى العديد من الجراحات ارتبطت آلامها المضنية بنمو خاصية التأمل والتفكر فيما أقول وفيما أكتب .
وطرائق الله فى إصلاح عباده ليس لها حصر .
ولا أحد يستطيع أن يحدد رحمته أو يحصر فضله ولكن من عجائب ما يثمر التأمل . . أن الفقر والمرضى والألم والمكابدة والمعاناة . . غالباً ما تكون هى وسائل رحمته وعين فضله .

ومن يدرك هذا يتعلم التفويض والتسليم ويسقط التدبير والتزام الأدب مع الله وعدم الاعتراض على السلب والمنع بل يشكر ربه على المنع كما يشكره على العطاء بل ربما خاف العطاء وخشى منه الفتنة واستراح إلى المنع ورأى فيه المنة .
وتلك بعض أسرار المكر الإلهى الذى يخشاه العارفون جعلنا الله منهم وأخرجنا من ظلمتنا إلى نورنا بالألم والمكابدة لنشكر له الألم ولنشكر له المكابدة ولنشكر له النور . . فلا شئ كالنور ولو خرج من النار .
ألا يخرج النور دائماً من النار .

ألا يخرج نور الشمس من نارها الباطنية التى تهلكتها وتستنفدها . . وكأنما كل شعاع بأتينا أشبه بصرخة معها أنين ذلك الباطن الذى يفنى ويهلك لنعيش نحن ونستدفئ ثم ألا تبدو شريعة رجم الزانى أشبه بالحيلة الأخيرة لاستخراج نوره وذلك بتكسير غلافه البشرى بالكلية .

والعجيب في أمر هذه الشريعة أنه لا يتأتى تنفيذها إلا اعترافا وتطوعا واختيارا من الزاني لأن الله اشترط فيها شهودا أربعة يشهدون على أنهم رأوا الإدخال ورأوا العضو يدخل في العضو دخول المرود في المكحلة وهذا أمر مستحيل.. فلا يتأتى تنفيذها إذن إلا باعتراف اختياري يقوم فيه الزاني بتسليم نفسه وحتى هذا الاعتراف أقام النبي فيه التحفظات فكان إذا تقدم منه زان اعترف على نفسه رده عن اعترافه وقال له . . لعلك جننت . . ليعطيه فرصة للإفلات فيقول له الزاني . . بل إني عاقل فيقول نبي الرحمة ﷺ . . لعلك قبلت وذلك ليس بزنى . . فيقول له الزاني . . بل زنيت . . فيقول النبي . . لعلك عانقت . . فيقول الزاني . . بل أدخلت . . فيقول . . لعل الأمر لم يتم . . فيقول الزاني . . بل تم .

وحيث أنه يسلمه النبي إلى الرجم . . فهذا رجل يلاقى الهوان من سلطان جسده عليه ويعترف على نفسه بأن هذا الجسد استعبده في لحظة . . ويريد أن يحطم هذا الجسد ليتخلص ويتطهر .

وتلك حالة من حالات الوعي العالى المتسامى ، ولهذا يقول النبي عليه الصلاة والسلام عن « ماعز » أحد الزناة الذين رجمهم حين تأفف عمر من رشاش دمه . . يقول النبي . . والله إن توبة هذا الرجل لو وزعت على أهل الأرض لكفتمهم .

فتلك حالة من حالات الاستنارة الباطنية يتوسل صاحبها إلى الخلاص ولو بكسر غلافه المادى .

وذلك عقاب ذاتي وتطهير ذاتي تحف به صلوات الله والملائكة لأن صاحبه

يطلب استخراج نوره بأفدح الأثمان .

والسؤال لماذا رفعت آية الرجم من القرآن رغم ورود آية الجلد .

أهو إغراء بالتوبة وفتح لباب من أبواب اللطف الخفي .

أهو علم من الله بأنه تأتي عصور زنى تغشى فيها الظلمات الناس أمما وشعوبا ويشيع الفجور حتى يصبح إعلانات عادية وبرامج يومية في الإذاعة والتلفزيون فلا يعود للفساد علاج إلا ذلك الرجم العام الذى حدث لقوم عاد وثمود ولوط والفيل . . أو ذلك الهدم العام للعالم بالقيامة .

أنا أحب أن أفهمه بأنه لطف بأمة التوحيد والحمد لله الذى أنخى نعمته في عذابه وأنخى رحمته في غضبه وعلمنا بأن نناديه باسمه الرحمن الرحيم وبأسمائه الحسنى وكل أسمائه حسنى حتى أسمائه التى يرتجف لها القلب كالمذلل والقابض والخافض والمنتقم والجبار والمميت .

سبحانه . . كتب على نفسه الرحمة .

وقال . . سبقت رحمتى غضبى .

وقال . . وسعت رحمتى كل شيء .

وقال لنييه الخاتم .

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

وأهم ملائكته أن يستغفروا لنا بالليل وبالنهار وصلى هو وملائكته على

المؤمنين منا ليخرجنا من ظلماتنا إلى نورنا .

وقال عن الناجين في الآخرة .

(نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم) .

فالحمد لله رب العالمين على نعمته .
والحمد لله رب العالمين على عذابه .
ونسأله العفو والمغفرة والاستقامة .

* * *

فهرس

صفحة	
٣	قنبلة وشبكة الإنفجار !
٩	أهل الله وأهل الشيطان !
١٧	الحكم الإسلامى . . متى . . وكيف ؟
٢٧	الشيوعية العالمية . . إلى أين . . ؟
٣١	لماذا ينتحرون . . ؟
٣٧	لماذا الكوارث ؟
٤٣	لا تستهينوا بالكلمات
٥٣	الجهل العلمى
٥٩	لعبة تحرير الشعوب
٦٧	عن الفن والدين
٧٣	كلنا فى نفس السفينة
٧٧	من هو العارف بالله ؟
٨١	الخروج من الظلمة إلى النور

صدر للمؤلف

- ١ - الله والإنسان : مجموعة مقالات كتبت في صيف ١٩٥٥ .
- ٢ - أكل عيش : مجموعة قصص قصيرة كتبت بين ١٩٥٣ - ١٩٥٤ .
- ٣ - عنبر ٧ : مجموعة قصص قصيرة كتبت بين ١٩٥٥ - ١٩٥٧ .
- ٤ - شلة الأوس : مجموعة قصص قصيرة كتبت بين ١٩٦٢ - ١٩٦٤ .
- ٥ - رائحة الدم : مجموعة قصص قصيرة كتبت بين ١٩٦٥ - ١٩٦٦ .
- ٦ - إبليس : دراسة كتبت في عام ١٩٥٧ - ١٩٥٨ .
- ٧ - لغز الموت : دراسة كتبت في عام ١٩٥٨ - ١٩٥٩ .
- ٨ - لغز الحياة : دراسة كتبت في عام ١٩٦٧ .
- ٩ - الأحلام : دراسة كتبت في عام ١٩٦١ .
- ١٠ - أينشتين والنسبية : دراسة كتبت في عام ١٩٦١ .
- ١١ - في الحب والحياة : مجموعة مقالات كتبت بين ١٩٦١ - ١٩٦٦ .

- ١٢- يوميات نص الليل : مجموعة مقالات كتبت بين ١٩٦٦-١٩٦١ .
- ١٣- المستحيل : رواية كتبت في عام ١٩٦٠ .
- ١٤- الأفيون : رواية كتبت في عام ١٩٦٤ .
- ١٥- العنكبوت : رواية كتبت في أوائل عام ١٩٦٥ .
- ١٦- الخروج من الثابت : رواية كتبت في أوائل عام ١٩٦٥ .
- ١٧- رجل تحت الصفر : رواية كتبت في عام ١٩٦٦ .
- ١٨- الإسكندر الأكبر : مسرحية كتبت في صيف ١٩٦٣ .
- ١٩- الزلزال : مسرحية كتبت في صيف ١٩٦٣ .
- ٢٠- الإنسان والظل : مسرحية كتبت في عام ١٩٦٤ .
- ٢١- غوما : مسرحية كتبت في شتاء ١٩٦٨ .
- ٢٢- الشيطان يسكن في بيتنا : مسرحية كتبت في أبريل ١٩٧٣ .
- ٢٣- الغابة : رحلة إلى أفريقيا الاستوائية كتبت في أكتوبر ١٩٦٣ .
- ٢٤- مغامرة في الصحراء : رحلة إلى الصحراء الكبرى في صيف ١٩٦٩ .
- ٢٥- المدينة (أوحكايات مسافر) : مجموعة سفرات إلى أوروبا بين ١٩٥٦ - ١٩٦٨ .
- ٢٦- اعترفوا لي : مختارات من رسائل القراء بين ١٩٥٦ - ١٩٥٩ .
- ٢٧- ٥٥ مشكلة حب : مختارات من رسائل القراء بين ١٩٦٠ - ١٩٦٦ .

- ٢٨- اعترافات عشاق : مختارات من رسائل القراء بين ١٩٥٦ - ١٩٦٦ .
- ٢٩- القرآن محاولة لفهم عصري : دراسة كتبت في شتاء ١٩٦٩ .
- ٣٠- رحلتى من الشك إلى الإيمان : دراسة كتبت في عام ١٩٧٠ .
- ٣١- الطريق إلى الكعبة : رحلة حج كتبت في عام ١٩٧١ .
- ٣٢- الله : دراسة كتبت في أوائل ١٩٧٢ .
- ٣٣- التوراة : دراسة كتبت في أوائل ١٩٧٢ .
- ٣٤- الشيطان يحكم : مجموعة مقالات كتبت بين ١٩٦٥ - ١٩٧٠ .
- ٣٥- رأيت الله : دراسة كتبت في صيف ١٩٧٣ .
- ٣٦- الروح والجسد : مجموعة مقالات كتبت في شتاء ١٩٧٣ .
- ٣٧- حوار مع صديق الملحد : مجموعة مقالات كتبت في مارس ١٩٧٤ .
- ٣٨- الماركسية والإسلام : صدر عن دار المعارف في فبراير سنة ١٩٧٥ .
- ٣٩- محمد : صدر عن دار المعارف في يوليو ١٩٧٥ .
- ٤٠- السر الأعظم : صدر عن دار المعارف في ديسمبر ١٩٧٥ .
- ٤١- الطوفان : مجموعة قصص ومسرحيات قصيرة يناير ١٩٧٦ .
- ٤٢- الأفيون : سيناريو وحوار مارس ١٩٧٦ .
- ٤٣- الوجود والعدم : دراسة سنة ١٩٧٧ .
- ٤٤- من أسرار القرآن : دراسة سنة ١٩٧٧ .
- ٤٥- لماذا رفضت الماركسية : دراسة سنة ١٩٧٦ .
- ٤٦- نقطة الغليان : مجموعة قصص قصيرة ١٩٧٧ .

- ٤٧- عصر القروود : دراسة كتبت في يناير ١٩٧٨ .
- ٤٨- القرآن كائن حتى : دراسة في يناير ١٩٧٨
- ٤٩- أكذوبة اليسار الإسلامي : دراسة كتبت في أغسطس ١٩٧٨
- ٥٠- نار تحت الرماد : مقالات كتبت في ١٩٧٩
- ٥١- المسيح الدجال : مجموعة قصص قصيرة كتبت في ١٩٧٩
- ٥٢- أناشيد الإثم والبراءة : ١٩٨٠
- ٥٣- جهنم الصغرى : مسرحية ١٩٨٢ .
- ٥٤- من أمريكا إلى الشاطئ الآخر : مقالات ١٩٨٢

* مجموعة المؤلفات الكاملة *

- قصص مصطفى محمود صدرت في بيروت عام ١٩٧٢ .
- روايات مصطفى محمود صدرت في بيروت عام ١٩٧٢ .
- مسرحيات مصطفى محمود صدرت في بيروت عام ١٩٧٢ .
- رحلات مصطفى محمود صدرت في بيروت عام ١٩٧٢ .

حازت رواية «رجل تحت الصفر» على جائزة الدولة لعام ١٩٧٠

١٩٩٥/٨٩-٢	رقم الإيداع
ISBN 977-02-5067-8	الترقيم الدولي

١/٩٥/٤٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.ب.)

هذه المجموعة

تحرص دار المعارف دائماً على تقديم الأعمال الكاملة لكبار المفكرين والأدباء. والدكتور مصطفى محمود واحد من هؤلاء الذين أخلصوا للقلم. فأثرى ساحة الفكر والعلم. وطرق أبواباً جديدة لم تفتح من قبل. فتنوع إنتاجه بين القصة والرواية والمسرحية وأدب الرحلات. إلى جانب تلك المؤلفات التي تحفل بالنظرات المعاصرة للفكر الديني والمقارنة بالنظرات العلمية الحديثة. والتي لا تزال تثير مزيداً من الجدل المفيد.

وقد امتد تأثير فكر الدكتور مصطفى محمود إلى القراء العرب من الخليج إلى المحيط كما ترجمت بعض أعماله إلى اللغات الأجنبية شاهدة بقدرته على العطاء المتميز المتنوع.



دارالمعارف

